ليتها تموت

(رواية)

سارة بشار الزين

الإهداء

إلى العيون المطمئنة.. التي تغفو آمنةً من مكائد الدهر وحبائل الشيطان..

إلى الروح المطمئنة.. الساكنة في العلياء بين أنفاس الهدى والرحمة..

إلى النفس المطمئنة.. عساها ترجع إلى ربها راضيةً مرضيّة.. فتدخل في عباده والجنة..

وإلى كلّ من يعيش قلق الحياة في صراعٍ بين الأنا والعالم.. بين الذات ومرضاة الله..

أرفع هذا العمل..

عساه ينير سبيل السالكين إلى معارج الرقيّ والخلود..

مستمدةً العون والتوفيق من الله..

سارة الزين.

(1)

لم أكن أقصد أن أقتلها... لم أنوِ ذلك.. ولكنني فعلت!!!

ها قد ماتت وأنا ارتحت.. تخلصتُ منها ومن طيفها الذي ما برح يرافقني ويحرمني لذة النوم الهنيء!!

****

بعد عودة جارتي من المستشفى، استقبلتها أم يوسف بحرارةٍ وفرحٍ رغم أنني شعرتُ أنها كانت السبب في مرضها ودخولها المستشفى! كنتُ أراقبها من نافذة غرفتي المطلة على الشارع، لا أدري لماذا أجهدت نفسها أم يوسف بالتمثيل في هذا اليوم كي تعبر لجارتنا عن فرحتها بعودتها سالمة، ربما لكي تبعد الشبهات عنها!!

كانت مشعوذةً وساحرة، تحب أن تلعب بأقدار الناس ومصيرهم، وتتمنى لهم التعاسة كما هي حالها وحياتها!!

أحسستُ أني كرهتها في اليوم الأوّل الذي رأيتها فيه عندما انتقلتُ للسكن في هذا البيت وكانت تسكن في البيت المقابل.. تشابكت عيناي بعينيها، وجدتُ فيهما لمعةً مخيفة، فاستعذتُ بالله في نفسي وتجاهلتُها في محاولةٍ لإبعاد شرها عني وخطرها عليّ.. واعتقدتُ أنه يجب عليّ منذ ذلك اليوم أن أحذر منها وأحدّ علاقتي بها!

لماذا ترتجف يداي؟؟!! لم أستخدمهما لقتلها! كان ذلك أسهل بكثيرٍ من طعنة سكينٍ أو طلقة رصاصةٍ!!

كم أنّ في القتل لذّة غريبة، ولكنك بعدها تشعر بالإحباط والخمول والندم..!!! لا.. ليس الندم، لأنّه سرعان ما يمرّ الوقت وتعود الرغبة من جديد!!

استيقظت في ذلك النهار على صوت عويلٍ وبكاء.. كانت أم يوسف عند باب بيتها تصرخ وتلطم على صدرها بحرقةٍ وألم..

أشفقتُ عليها كثيراً، لا أدري لماذا، فأنا نادراً ما أشفق على من أكرهه.. ربما كان سبب شفقتي رؤيتها منكسرةً وذليلة، أحببتُ كثيراً هذا المشهد، فنحن لا نراه عادةً عند أمثالها من المتسلطين والمتكبرين!!

أحسستُ أني أنا الآن القوية وهي الضعيفة المسكينة المغلوب على أمرها.. علمتُ أنّ ابنها "حسن" قُتل.. لم أتأثّر!! بل على العكس، ازددت ثباتاً وقوّة وكأنّ أحدهم أعطاني جرعةً منعشة، فتخدرتُ مع إحساس الرغبة في السخرية والضحك.

نظرتْ إليّ بحرقةٍ ولوعة..

قالت: "هيّا، استغلي حزني وألمي لتشمتي بي!!"

أجبتها مدعيةً الرقيّ والأخلاق: "لا شماتة في الموت!"

ثمّ دخلتُ منزلي وتوجهتُ إلى غرفتي محاولةً النوم، ولكنني لم أستطع ذلك.. وجدتني أفكر فيها من دون انقطاع، ربما كان هذا جزاءها لأنها كانت تتمنى السوء لمن حولها! كيف فكرت في أن تُلقيَ سحرها على العالم ولم تفكر في حماية ابنها من شعوذات الغير؟!!

نزل سكان العمارة كلهم لمواساتها، الكل يداريها مع أنّ لا أحد يحبها!! ربما كانوا يتّقون شرها ولكنني لست مثلهم، فأنا لا أعرف المجاملة أو المسايرة

رغم أني أحبّ الكذب.. أجده في بعض الأحيان مسلّياً وعند الضرورة يكون منقذي وملاذي الوحيد.

جاءت خالتي لزيارتي في ذلك اليوم، لاحظتْ حركةً غريبةً في العمارة ولكنني لم أخبرها عما حصل لـ"جارتي" أم يوسف.. لم أكن أحبّ الاعتراف بجيرتها، في داخلي بركانٌ متفجرٌ من الحقد نحوها، وكنتُ كلما دخلتُ منزلي قرأتُ سورة الفلق خوفاً من نظراتها وسحرها وحسدها!!

كنتُ أحبّ خالتي ولكنني لم أتفق معها يوماً في التفكير كما أنني لا أتفق مع الكثيرين، فخالتي كانت عقلانيّةً إلى درجةٍ مملّة وأنا أهوى العفويّة الطفوليّة والمغامرات اللاواعية رغم أني تجاوزت الخامسة والثلاثين من العمر!

كانت كلما رأتني تقول "رحم الله والدتك، كانت تتمنى أن تراك عروساً".. ما هو سبب هوَس الأهل في رؤية أبنائهم متزوّجين ثمّ البكاء عليهم عندما يغادرون؟!! ولمَ الاستعجال على إدخالهم قفصاً لا يقلّ قبحاً عن الذي دخلوه هم سابقاً؟!!!

هناك حكمةٌ من بكاء الطفل عند دخوله المدرسة في يومه الأوّل، وهي إدراكه بشاعة الحياة في مدرسةٍ جديدةٍ لطالبٍ جديدٍ يلتقي طلاباً لا يقلون عقداً عن التي حملها هو من منزله!!.. فما الحكمة إذًا من فرحة المرأة وسعادتها ليلة الزفاف والعرس رغم إدراكها ويقينها أنّها تدخل بذلك قفصاً حديديّاً سيحرمها بسمة الدلال التي كانت تملأها أيّام كانت تعيش وسط الأهل والعشيرة؟!!

بدأت خالتي تحدثني عن الحياة والتجارب فيها على طريقتها الخاصة والمتفلسفة، وأنا كنتُ أصغي إليها مبديةً الاهتمام بحديثها وفي داخلي مسرحيّةٌ هزليّة، تكاد الضحكة تفضحني من شدة سذاجتها وتعابيرها التافهة المتفلسفة!!

كان من أفضل الأمور لديّ أن أهزأ بالناس مِن حولي وأن أستخفّ بعقولهم وبتفكيرهم في الوقت الذي يظنونني فيه معجبةً بهم!! كم هو سهلٌ أن تجذب

الآخر إليك حتى من دون كلام.. كلّ شيءٍ يتعلق بتعابير الوجه وردات الفعل والسيطرة على الذات، وهذا ما أجدني ضليعةً فيه!

كانت خالتي فتيّة ومتزوّجة، ليس لديها أطفال وهذا ما جعلها، رغم عقلانيّتها التي لم تساعدها في هذا الموقف، تصطفُّ في طابور المعقدين..!!

كانت تحاول معالجة مشكلتها، فذهبت إلى أطباء عدة من مختلف الجنسيّات ودفعت أموالاً طائلة كي تعرف المشكلة التي تمنعها من الانجاب وتحلها، ولكنها لم تحصل على أية نتيجة!! وطبعاً، رفض زوجها القيام بالفحوصات اللازمة في هذا المجال لأنّ ذلك يمسّ برجولته، واعتبر أنّ مجرد طرح الفكرة تعد إساءةً له وبحقه، فانهال عليها ضرباً وشتماً..

يظنّ الرجل أنه من خلال العنف والضرب يعبر عن رجولته المطلقة والمسيطرة على المرأة، في حين أنّ أوّل ما يظهر ضعف الرجل وعجزه هو استخدامه العنف والقوّة أمامها.

أما المرأة المسكينة، فتفضل العيش في ظلّ هذا الرجل الذي تجده أكثر أمناً لها من نظرات الناس إليها عندما تكون "مطلقة".

مجتمعٌ غريبٌ ومنفّر، لطالما فكرتُ في السفر للخارج إلى بلاد الغرب حيث الجميع مشغولٌ بنفسه ولا أحد يتدخل بالآخر!! كنتُ أسعى إلى ذلك كثيراً ولكنّ والدي كان يمنعني من المحاولة، وقد كان يعلم أنني منذ بلغتُ الثامنة عشرة من عمري كنتُ أخبئُ مصروفي كي أستطيع تأمين تذكرة سفرٍ من عالم السجن الذي أعيشه مع نفسي وفي مجتمعي إلى عالم الحريّة المنشودة!!!

كم كنتُ أجلسُ إلى نافذة غرفتي في منزل والدي أترقب بعيون الأمل ذلك اليوم، أنظر بين الغيوم أتخيّل ذاتي هناك أحلق نحو الحريّة، وحمامات الأمن تلاحقني وتحرسني في سفري، وعندما أسمع خطوات والدي تتجه نحوي أعود إلى فراشي مدعيةً السبات العميق، ثمّ أكمل هناك تحت ذاك الغطاء الذي كان يلفني تمثيل دور المغتربة السعيدة التي بدأت حياتها ومغامراتها منذ

مغادرتها لبلادها!! وحلمتُ أنني يوماً.. سأكتب مغامراتي هناك على دفتر يوميّاتي وأرسله إلى أهلي وعائلتي علّهم يقرأونه ويدركون فارق الحياة بين العالمين!! كان العالم الغربيّ حلماً بالنسبة إلي في الحياة أسعى على الدوام إلى تحقيقه، وكان يأخذ حيّزاً كبيراً من وقتي..

كنتُ أحبّ أمي كثيراً، أحبها أكثر من أبي، ربما لأنها ماتت في صغري!! أحببتها لأنني لم أرها كثيراً ولم أعرفها جيّداً.. أحببتُ الصورة التي رسمتها لها في أحلامي وعشتُ أتخيّلها من دون أن يتجرأ أحدٌ على تشويهها بكلمةٍ أو بذكرى سيّئة.. أحببتُ فكرة كوني أنا التي تخيّلتها كما أردت، وحددتُ كلماتها وتفاعلها معي على عكس والدي الذي كان يفرضُ عليّ حركاته وتصرفاته وكلماته بإرادته "هو"!!!

****

شعرتُ بالملل في ذلك اليوم عندما قررتُ الذهاب لزيارة صديقتي "سمر" بعد أن صممتُ ألا أزور والدي المريض الذي استحقّ مرضه بجدارةٍ بعد أن أجهد نفسه في سلسلة حركاتٍ وتجوّلاتٍ رغم علمه بضعف بدنه وصعوبة حركته في هذه السنّ!

خرجتُ من بيتي لأجد "أم يوسف" واقفةً عند باب منزلها تُحدثها جارتها عن ابنتها العروس الجميلة، فالتفتت إليّ بنظرةٍ ساخرةٍ ومريبة..

قالت: "ولمَ لم تتزوّجي بعد يا نجوى، مع أنّك جميلة؟ إنما يبدو أنّ فيكِ ما يُنفر الرجل ويُبعده عنك!!"

أجبتها بطريقةٍ حاقدة: "أرى أنك نسيت مقتل ابنك وعدت إلى مهنتك السابقة في التدخل في شؤون الغير، لو لم يكن ابنك مع عصابة السوء تلك لما قتلوه! انظري إلى تربيتك ماذا أثمرت، قتيلٌ ومطلق! اهتمي بشؤونك قبل التحدث عن الغير!!"

أعلم أنني قسوتُ عليها كثيراً بهذا الكلام، وقد كان باستطاعتي القيام بأكثر من ذلك ولكنني رأفتُ بها لأنّه لم يمرّ شهرٌ كاملٌ بعد على مقتل ابنها حسن.

لا أدري إن كان لي يدٌ في مقتله، ربما، ولكنني لم أتوقع أن يقتلوه!! كنتُ أظنّ أنهم سينهالون عليه بالضرب.. كلّ ما في الأمر أنني كنتُ جالسةً في منزلي فطرق بابي مجموعةٌ من الرجال يسألونني عنه، بدا عليهم الغضب والانفعال، كانوا عصابةً من الحشّاشين لذلك شعرتُ بالرعب منهم، كنتُ مستعدةً للبوح بأيّ شيءٍ شرط أن أبقى على قيد الحياة وسليمةً بعد هذا الفعل، فقد كانت بنيتهم عريضةٌ ومخيفة، تَرهبُهم وإن ابتسموا لك، سألوني عنه وعن المكان الذي يختبئ فيه فأخبرتهم عن الحوار الذي دار آخر مرّة بينه وبين والدته أم يوسف وعن المكان الذي أخبرها أنّه سيتواجد فيه!!

كنتُ أريد أن أنقذ نفسي.... !! لم أقتله عمداً، وما دخلي أنا؟ ثمّ إنه ولدٌ ضالٌّ وسيّئ، يستحق هذا العقاب.. أم أنّ موته كان رحمةً له؟! لم أعد أدري، ففي هذا العالم تنقلب الموازين والمفاهيم والعبارات، فلا تدري إن كان البياض يعني الطهارة، أو السواد يعني الظلم!!

وولدها الكبير "يوسف" المطلق، والذي يعيش في معاناةٍ مع ابنه الوحيد الذي يعصيه في كلّ شيء ويتمرد عليه.. ولدٌ آخر من سلسلة الأولاد المعقدين!!!

كنتُ أعلم أني جميلةٌ جداً وجذابة.. كان في عينيّ سحرٌ لافتٌ وفريد، وكان الجميع يستغربون أني ما زلتُ غير متزوّجة، لا أدري لماذا بقيتُ كذلك.. ربما بسبب قصر قامتي، أم أنّه تفكيريَ الخاص الذي لا يتفق مع أحدٍ على الإطلاق!!

كانت النساء في عمارتنا يخفن على أزواجهنّ مني، كنّ يرهبن الطابق الأوّل الذي أسكن فيه لعلمهنّ أنّ هناك امرأةً عانس جميلة تعيش فيه وتشكل خطراً على حياتهنّ وبيوتهنّ... مع أنّ خوفهنّ الحقيقيّ لستُ أنا سببه، بل هو من أنفسهنّ لأنّهن يدركن تقصيرهنّ بحقّ أزواجهنّ وإلا ما كانت أيّ امرأةٍ لتخاف على بيتها لو أنّها حصنته بشكلٍ ثابتٍ وقويّ!!

أنا أعرف مشكلة كلّ امرأةٍ تعيش في هذه العمارة، كنتُ أراقب الجميع من بعيد، أتعلم من أخطاء من حولي وقد خضتُ تجارب عديدة في هذا المجال، تعرفتُ إلى رجالٍ كثر وقد نجحتُ في إيهام أكثرهم بأنني أحبهم، وبعضهم ما زال حتى الآن ينتظرني...

ويقولون إنّ المرأة ساذجة؟!!

لم أكن أحب الشعور بالفراغ، لذا كنتُ أملأ وقتي دائماً بأية طريقةٍ ووسيلة، فإما أن أراقب الناس أو أن أترقب تصرفاتهم وأفعالهم!!

أكملتُ طريقي متوجهةً إلى بيت صديقتي "سمر"، صديقتي في كلّ شيء، حتى في الحظ!! فهي مثلي، تارةً تبتسم لها الحياة، فتشعر أنّ الأمور بدأت تنفرج والأحوال تسير نحو الأحسن والأفضل، وتارةً أخرى تغرق في همومها وذاتها فينزل البلاء عليها من دون رحمة.

مشكلة هذه الفتاة أنها لا تعرف ما تريد ولا تستغلّ الفرص المتاحة أمامها.. تقدم لخطبتها يوماً رجلٌ فيه كلّ الصفات التي تتمنّاها فتاةٌ في أوج أحلامها، كانت مترددة.. فجاءت إليّ تسألني وتطلب رأيي، أحسستُ أنّ في داخلها ميلاً قويّاً تجاهه مع ترددٍ لا تبرره إلا الشخصيّة الضعيفة والإرادة المضطربة التي تمتلكها!!

رحتُ أشجعها على القبول به، أمتدحه أمامها وأخبرها عن الفتيات اللاتي تتمنّين الحصول على شابٍ في مثل صفاته وأخلاقه، ولمّا شعرتُ أنها بدأت تقتنع بالفكرة انزعجت!! أحسستُ أنني سأبقى وحيدة إنْ هي تزوّجت، وأنا لا أحبّ الوحدة.. فاستدركتُ في حديثي وغيّرتُ لهجتي وبدأتُ أحدثها عن معاناة صديقاتنا في زيجاتهنّ، وأنّ الزواج سجنٌ يحرم المرأة من أن تمارس حريّتها بل ويجعلها تخضع لسيطرة وإرادة الرجل!!

عندها شعرت "سمر" بالخوف والاضطراب.. أتذكر ردّة فعلها جيّداً..

قالت: "لستُ مستعدةً بعد لذلك.. إن كان يريدني فعلاً فسينتظرني، وإلا فأنا لا أريده!"

فرحتُ بكلامها، علماً أنني كنتُ أتوقع أكثر من هذا بكثير ولكنّ فرحتي لم تدم طويلاً.. وكنتُ أعلم أنّ حظّي يتعسّر من حينٍ لآخر، فسرعان ما هاتفتني بعد أسبوعين تخبرني أنّها غيّرت رأيها وستتمّ خطبتها خلال يومين!!

شعرتُ باضطرابٍ ودوارٍ شديد.. لم أستطع التفكير، كان رأسي مشتتاً لثقل الخبر عليّ.. ولكنني في اليوم التالي استيقظت ولم أجد غير تلك الوسيلة.. الوسيلة الوحيدة التي تشفي غليلي وتفرحني.. "القتل"!!

كنتُ أقوم بكلّ شيءٍ بتقنيّة مبهرة ولافتة، وكأنه مضى لي في هذه المهنة سنين، أعجبتُ بنفسي.. حتى أنني كنتُ أقف للحظات أتأملها وأمتدحها على دهائها!! ولكن بعدما نجح مخططي وقضي الأمر، عاد الإحباط يتملكني وبدأتُ أنزوي بذاتي حزينة..

منذ ذلك الوقت كنتُ كلما رأيت "سمر" شعرت ببعض الانقباض داخلي، تُرى أتراني كنتُ السبب في حزنها؟.. ولكنني لم أقصد أن أؤذيها، أنا لا أريد أن أؤذي أحداً!!

جلستُ معها نتحدث ونتسامر.. أخبرتها عن آخر مغامراتي مع ذلك الرجل الذي بقيتُ أحدثه لسبع ساعاتٍ على الهاتف، وبعدها بدأتُ أراه كلّ يومٍ تقريباً، نلتقي في مطعمٍ في وسط البلد ونبدأ الحديث عن هذا وذاك، ولم نتحدث يوماً عن أنفسنا.. حتى أخبرته في ذلك اليوم عبر الهاتف أنني لم أعد أريده وأنني شعرتُ بعد هذه المدة التي قضيتها معه أنه ليس الرجل المناسب لي..

كنتُ أتمنى في تلك اللحظة لو أنني رأيتُ ردة فعله وتعابير وجهه، ندمتُ لأنني أنهيتُ علاقتي به عبر الهاتف، فأنا أعشق رؤية معالم الفشل والخيبة عند الناس، وقد قررتُ أن أعيد المشهد والتجربة نفسها مع شخصٍ آخر على أن أتدارك الأخطاء الماضية.

غريبٌ هذا العالم.. يظنّ الإنسان فيه أنّه يستطيع التحكم بنفسه وبمن حوله، ليجد نفسه بعد وقتٍ قصيرٍ يخضع لإرادةٍ لا مرئيّةٍ تجعله يعود إلى حجمه الطبيعيّ ويدرك مكانته الصغيرة في هذا العالم!!

****

كان الوجود مبهراً في ذلك اليوم، كنتُ جالسةً في منزلي أتأمّل روعة المشهد، ونسمات الهواء تداعب جسدي النحيل حتى كادت عيناي تغفوان على نعومة هذا الإحساس ولكنني تنبهتُ عندما طرق رجلٌ بابي.. كان زوج خالتي الذي لم أتوقع زيارته أبداً.. استقبلته بترحيبٍ كبيرٍ ودعوته للجلوس ثمّ ذهبتُ وأحضرتُ له العصير ورحتُ أنتظر حتى يدخل في صلب الموضوع، لم أُبدِ تفاجئي بزيارته ولكنني كنتُ أتحرق شوقاً لمعرفة أسباب هذه الزيارة الغريبة.. لاحظتُ عليه الكثير من الانفعال والاضطراب والحرج فرحتُ أتكلم بالعموميّات حتى أخفف عنه وأمهد له الطريق كي يتكلم براحةٍ واطمئنان أكبر.

مرّت نصف ساعةٍ وأنا أتكلم بينما هو شارد الذهن يفكر، حتى بدا عليه التصميم أخيراً فسألني عن خالتي.. كان قد لاحظ غيابها المتكرر وبعض التصرفات الغريبة والمريبة في الآونة الأخيرة، وما كاد ينهي حديثه حتى سمعنا طرقاً للباب بعنفٍ وقوّة، سارعتُ إلى فتحه ففاجأتني خالتي مقبلةً عليّ تشتمني وتضربني بمعصمها..

قالت بنبرةٍ قاسية وحادة: "يا سارقة الرجال.. إنها أنتِ أيتها الحقيرة.. ما كان هكذا ظني بكِ!!"

أخذ زوجها يبعدها عنّي وهي تصرخ وتقول: "أهذه التي تخونني معها؟ أهذه التي تمضي أغلب وقتك عندها؟!"

ثمّ التفتت إليّ وأكملت: "لقد أخبرتني جارتك عن زياراته الدائمة لكِ، سوف لن تنجي بفعلتك هذه أبداً..!!"

بقيتُ أنظر إليها متجمدةً من دون أيّة ردة فعل مع أنها آذتني فعلاً بكلماتها وضربها لي.. لم أدر ما كان يجب عليّ أن أفعل فبقيتُ واقفةً ومصدومة في حين راح زوجها ينهرها، ثمّ أخذ بيدها وخرج بها من منزلي من دون أن يوجه أحدهما إليّ أيّة كلمةٍ أخرى.

إنه الحقد.. عاد ليشعل فتيله داخلي.. عدتُ أفكر في الانتقام، كيف تظنّ فيّ خالتي ظن سوءٍ كهذا، كيف تفكر بهذه الطريقة، وتلك المشعوذة "أم يوسف"، أنا متأكدةٌ من أنها هي التي تحدثت بالسوء عني أمام خالتي واخترعت تلك الأخبار المزيّفة.. ولكن، لماذا صدقتها..؟!!

تلك الخبيثة الساحرة.. لا بدّ لها أن تموت، وخالتي التي كانت تدعي حبها لي، كم أنّ التمثيل غدا سهلاً في هذه الأيّام، لا بدّ لها من عقابٍ جراء فعلتها، كيف لهم أن يعيشوا ويستمروا في أذيّة الغير.. لا، هذا ما سأرفضه وأواجهه، عليها أن تعتذر مني، ولكنّ هذا لن يكفيني.. كرامتي لا تسمح لي بقبول اعتذار فقط!!

ألم يأتِ في القرآن أنّ من يتهم اتهاماً باطلاً كهذا يُجلدُ ثمانين جلدة هذا إن لم يمت من الجلدة الأولى، وأنا أفضل أن أرحمها وأريحها.. فليكن الموت سريعاً إذاً، وليرتح الجميع!! فهي لطالما كانت حزينةً في حياتها، تعيش في عقدةٍ دائمة.. عقدة عدم استطاعتها الإنجاب، فأدخلت حياتها في شكوكٍ موهمةً نفسها أنّ زوجها سيبحث عن غيرها، حتى بدأت تراقبه بينما جاء هو إليّ يسألني عنها بعدما كثر غيابها عن منزلها وإهمالها له!!

لماذا تعيش المرأة في خوفٍ دائمٍ من زوجها؟!! ألأنّ الرجل بطبيعته ليس مصدراً للثقة؟! أم لأنّ المرأة بطبعها غيورة وغبيّة؟! نعم غبيّة في بعض الأحيان.. فهي إما أن تتمادى في إهمال زوجها، أو أن تكثر من الاهتمام به لدرجة الشكوك والهوس!

وأمّا الرجل.. فإما أن يكثر في غيرته لدرجةٍ تخنق المرأة وتزعجها منه، وإما أن يبالغ في إهماله لها فتسمح لنفسها بالقيام بأمورٍ تستفزه وتستفز رجولته المريضة!!

مرّت أيّامٌ قليلة ورتيبة.. وقد تمت أخيراً الإرادة الإلهيّة العادلة في طلاق خالتي، هذا الأمر كان من أولى الخطوات التي كنتُ أنتظر حدوثها.. وقد كنتُ قد أجلتُ أمر "أم يوسف" إلى وقتٍ لاحق، وقتٍ أتفرغ فيه بالكامل لها كي أستطيع أن أخطط لموضوعٍ كبيرٍ يليق بحجمها، بشيءٍ يعذبها قبل أن تموت، بأمرٍ قاسٍ يؤدي إلى موتها بشكلٍ بطيء، مع أنني أحبّ القتل السريع فهو يريحني ولا يتعبني، ولكنّ العذاب لأمثالها يغريني أكثر..!!

القتل بالنسبة إليّ أشبه بكرةٍ هوائيّة كبيرة، تحتاج إلى من يفجرها حتى يرتاح من ثقل العبء على صدره!!

كم نحفت خالتي في هذه الفترة، أصبحت كعود الكبريت مع وجهٍ شاحبٍ وحزين، رأيتها مرّةً في الطريق.. تبادلنا النظرات، كانت تنظر إليّ كمن يطلب الرحمة والعفو، وكنتُ أبادلها النظرة ذاتها والحقد يختبئ وراء عينيّ البريئتين!!

جاءت إلى منزلي بعد طلاقها، استقبلتها برحابةٍ ومحبةٍ مصطنعة.. اعتذرت مني وطلبت السماح فتقبلتُ ذلك مبتسمة، وأسمعتها كلماتٍ رقيقةً وجميلة كنتُ قد حضرتها لهذا الموقف، كنتُ بحاجةٍ إلى القيام بهذا الدور كي تثق بي من جديدٍ ومن ثمّ أردُ لها الصاع صاعين!!

اليوم أستطيع أن أنام مرتاحة البال بعد أن ضمنتُ أنّ خطتي سوف تنجح مع خالتي.. وفي الغد سأبدأ بالتخطيط والتفكير بوضع "أم يوسف" وبكيفيّة التخلص منها ومن شعوذتها!!

الحمد لله.. اليوم ستغفو عيناي أخيراً على وسادة العدل الذي سيتحقق غداً على يديّ، اليوم سأتخلص من كابوسٍ متعبٍ لأهنأ بأحلامي وآمالي..

أقبلَ يومٌ جديد، يومٌ مشرقٌ وآمالٌ كثيرةٌ تتجدد فيه.. بدأ تخطيطي في السابعة صباحاً، كان كلّ شيءٍ يسير بشكلٍ مدروس ودقيق حتى أقبلت صديقتي "سمر" تزورني، لم أكن أتوقع زيارتها وأنا لا أحبّ عادةً المفاجآت لأنني أفضل أن أدير كلّ الأمور بنفسي وأن يجري كلّ شيءٍ تحت ناظري وحسب رغبتي..

تناولنا الغداء معاً وتحدثنا بأمورٍ عديدة، أحبّ صحبتها ورفقتها، فهي مسليّةٌ كثيراً ومسرّةٌ للقلب، لديها روح الفكاهة وما زالت الطفولة تعيش في داخلها.. أخبرتني عن عمّها "ماجد".. لم يعجبني اسمه في البداية، جاء من أمريكا مؤخراً ويريد أن يستقر في لبنان وهو الآن يبحث لنفسه عن عروس.. لم يعنني كثيراً هذا الموضوع، ولكن أصبح عندي شوقٌ للتعرف إليه، ربما كانت رغبةً مني في وضع رجلٍ جديدٍ في طابور المعجبين بي، أو أنها رغبةٌ مني في التسلية لا أكثر!!

أخبرتني أنّ عمّها سيأتي ليزورها نهار السبت، فذهبتُ إلى منزلها في ذلك اليوم.. ورأيته!!

لم يكن جميلاً.. ولا حتى جذاباً.. ولكنّه كان رجلاً.. رجلٌ في زمنٍ قلّت فيه الرجال!!

أحببتُ طلته، غروره المتواضع، صمته البليغ، حركاته المهذبة مع قدرٍ كبيرٍ من الحنكة والقوّة..

اكتشفتُ فيه فيما بعد عناداً نادراً.. متشبثٌ بأفكاره وآرائه حدّ الموت.. يهتمّ بالآخر إلى درجة الإهمال، رقيقٌ إلى حدّ الصلابة، عجيبٌ في أمره وفعله.. لديه الكثير من عبث الأطفال، وميلهم إلى تكسير الدمى واللعب بأقدار الناس كما كان يفعل معي... ولكنه يبقى رجلي..!!

رجلي الذي اخترته حتى الآن وأردته أن يكون لي.. لا أدري إن كنتُ سأبقيه أو سأرميه فيما بعد كما فعلتُ مع غيره.. ولكنّه الآن يجذبني في كلّ شيء

حتى في سيجارته، تلك التي تثير فيّ الحساسيّة في أنفي فلا أتوقف عن العطس..

لم يأتِ في الوقت المناسب وهذا أجمل ما في الأمر.. كنتُ أفضل لو أنّه جاء في الوقت الذي كنتُ متفرغةً فيه تمامًا، ولكنني الآن مشغولةٌ بخالتي وبأم يوسف، عليّ الانتهاء منهما بسرعةٍ كي لا يشغلني عنه شيء، ولكن ماذا لو تعرف إلى أحدٍ غيري في هذه الفترة؟! ففتيات هذا الجيل أصبحن أقوى بكثيرٍ من أيّ وقتٍ مضى..

من الأفضل إذاً أن أؤجل أمر خالتي وجارتي ريثما أنتهي من أمري معه، فقد دخل إلى حياتي بطريقةٍ مذهلة وغدا من أولويّات أعمالي ومخططاتي.. يجب عليّ أن أنظر في أمره وأعطيه من الأهميّة أكثر مما أعطي لغيره.. فماجد هو "صناعة غربيّة" في العقليّة والعيش والتصرفات، لا بدّ لي إذاً من دراسة هذه العقليّة والتفرغ لها.

تذكرتُ عندها والدي، فقد عاش في الخارج لعشر سنوات بعد أن غادرتُ المنزل لأسكن وحدي.. لا بدّ أنّه يعرف الكثير من الأمور حول الأفكار الغربيّة وسلوكيات أهل الغرب وتصرفاتهم في يوميّاتهم وتفكيرهم في الزواج والحب!!

ذهبتُ إليه أحمل له باقةً من الزهور بعد أن حضرتُ نفسي ووجهي لتمثيل تعابير التعب والمرض.. رحتُ أخبره عن حالتي الصحيّة التي منعتني من زيارته في فترة مرضه.

كان بحالةٍ يرثى لها، لم أعتقد أنّ مرضه خطيرٌ إلى هذا الحد، لديه أدويةٌ كثيرة وكانت هناك ممرضة تعتني به وخادمة جديدة استخدمها للاهتمام بالمنزل.

لم أتصوّر يوماً أنني سأجده بهذه الحالة، ولولا حاجتي إليه لما أتيتُ لزيارته!! ولكن إن كنتُ أستطيع أن أستغلّ عطفه وضعفه في الوقت الذي أستفيد فيه من المعلومات التي يمتلكها، فلا بأس بذلك.

رحتُ أسأله بلهفةٍ عن حاله وأموره، كان يحدثني باندفاعٍ كبيرٍ وغريب، لم يكن يوماً كذلك، عرفتُ أنّ أحداً لم يأت لزيارته من أخواتي من زوجة أبي الثانية، فقط أخي، من زوجة أبي الثالثة، يتردد عليه كلّ أسبوع، وأظنه يأتي من أجل أن يضمن حصته من الميراث لا أكثر.. وقد وضعتُ أمر هذا الآخر من ضمن أهدافي اللاحقة!

راح أبي يرجوني أن أبقى عنده، أعجبني الإحساس بضعفه وحاجته إليّ، كنتُ أتلذذ بكلماته ورجائه لي للبقاء بقربه، وقد فرحتُ أكثر عندما رأيتُ معالم وجهه الحزينة بعدما أخبرته عن رفضي لطلبه.

تطرقتُ مباشرةً إلى الموضوع، ورحتُ أسأله عن أيّامه التي قضاها في بريطانيا ولندن، عن الناس هناك وحياتهم ومشاغلهم، سألته ببراءة ابنةٍ تعشق والدها وتهتمّ بتاريخه وماضيه وترغب في أن تسمع أخباره.

كان يحدثني بطيبةٍ لم أعهدها عنده مسبقاً من دون أن يشك ولو للحظةٍ في احتمال أن يكون هدفي من هذه الأسئلة هو غير الذي اعتقده ببراءة الأبوّة عنده!

أخبرني أنّ الغربيين يحبون الحريّة ويمارسونها في حياتهم ويوميّاتهم ولا يتدخلون فيما لا يعنيهم، أغلبهم يعيش لحظته من دون تذكر ماضيه أو التفكير في مستقبله، لا يحبون الهموم والمشاكل ويختارون شريكة الحياة التي تريحهم ولا تخنقهم.. كم أعشق تفكيرهم وحضارتهم، وكم أتمنى أن أكون مثلهم وأعيش حياتهم وتفاصيل مجتمعهم!!

كنتُ أستمع إليه مبديةً لهفتي عليه لا على كلماته علماً أنني كنتُ أستعجل كلماته داخلي، فقد كان لشدة تعبه وثقل المرض عليه يتوقف بين الفكرة

والأخرى ليأخذ نفساً عميقاً ويستريح لبضع لحظات، أمّا أنا فقد كنتُ أستشيط غيظاً من تباطئه في الكلام!

لم يعلّمني والدي كيف أحبه، لم يعلمني حتى معنى كلمة "حب"... بعد أن فقدتُ والدتي شعرتُ بحرمانٍ كبيرٍ من الحنان داخلي، كنتُ أبحث بين أرجاء منزلي وفي عيني والدي عن نظرةٍ تحويني، أو حضنٍ يملأ الفراغ في أعماقي.. لم أرَ منه غير الجفاء ونساءٍ غريباتٍ يدخلن بيتنا ويلوّثن ذكريات والدتي الطاهرة.

أظنّ أنها كانت طاهرة.. لأنّ الجميع يذكرها بالخير والكلّ يحبها ويحترمها، لذا لا بدّ من أنها كانت متميّزة وفريدة.. يا ليتني عرفتها!!

نعم، هذه هي أمي.. وأنا أشبهها كثيراً، فأنا أيضاً فريدةٌ في كلّ شيء ومتميّزة، حتى في جنوني الذي كان أوّل ما يجذب الرجال إليّ بعد وجهي الجميل والجذاب!

أتذكر عندما طلبتْ مني صديقتي "زينة" في الجامعة الذهاب لمقابلة حبيبها كي أخبره عن عدم استطاعتها ملاقاته بعد أن شدد والدها الرقابة عليها.. أنني ذهبتُ كما طلبت مني، لا لكي أقضي حاجتها ولكن رغبةً مني في رؤية "روميو" الذي كانت كلّ يومٍ تحدثني عنه وعن عشقه وحبّه الكبير لها وعن علاقتهما القويّة والمتينة!!

ذهبتُ إذاً لأختبر دقّة كلامها وصدقها فتحدثتُ مع حبيبها، بدا رزيناً ومهذباً، لم يخطئ معي لا في نظرةٍ ولا في كلام، ومنذ ذاك اليوم غدوتُ أنا الوسيط بينهما، أوصل لها كلامه، وأنقل له كلامها حتى غدوتُ أجلسُ معه طويلاً وأصبحتُ أراه كلّ يومٍ تقريباً، ولم أعد أنام من دون أن يسمعني صوته ليتمنى لي ليلةً سعيدة!! لا أدري إن قمتُ بذلك عن قصدٍ كي أسرقه منها ولكنني أحببتُ هذا الشعور، لم أفكر في صديقتي في تلك اللحظة، ولكنني فكرتُ بنفسي وبالإحساس الجميل الذي كنتُ أعيشه مع حبيبها.. وتمادينا في علاقتنا

كثيراً حتى بات الجميع يتحدث عن "روميو" و"جوليات"، ولكنّ "جوليات" لم تكن صديقتي، بل كانت.. "أنا"!!

كم أحبّ كلمة "أنا".. فيها من النخوة ما يشبع غروري ويغذّي نفسي وعنفواني، تجعلني أزداد ثقةً بنفسي وتنقذني في مواقف ضعفي..

علمتْ صديقتي بعلاقتنا وجاءت إلى منزلي تخبر والدي بالأمر وتفضحني أمام إخوتي وعائلتي.. أحببتُ في ذلك اليوم لو أنقضّ عليها وأشدها من شعرها، تمنيتُ لو يسيل دمها بين يديّ!!

كم أنها قاسيةٌ ومؤذية، لستُ أنا من أخذ منها حبيبها، لم يكن حبيبها يوماً، فلو كان كذلك لما استغنى عنها بهذه السهولة.

أتذكر أنّ والدي عاقبني ومنعني من الخروج من البيت لمدة أسبوع كامل، ومنذ ذاك اليوم ولد عندي الحقد.. لا أحياني الله إن بقِيَتْ هي على قيد الحياة..!!

بعد أن انتهت فترة عقابي من والدٍ لم يمارس أبوّته عليّ إلا في ذلك اليوم، ذهبتُ إلى الجامعة وكلّي غضبٌ وثورة ولكن الله قد حباني وجهاً مريحاً وسمحاً وبريئاً لا يبدي لأحدٍ انفعالاً أو غضباً ويبقى الآخر مأخوذاً بسحري ومخدوعاً بالظاهر الذي لا يتوافق أبداً مع ما يكمن داخلي، فاستغليتُ وجهي البريء وحاولتُ استمالة صديقتي "زينة" إليّ من جديد.. عدتُ أحدثها وأشرح لها موقفي على طريقتي الخاصة، أخبرتها أنني استحققتُ عقابي وقد قمتُ بهذا الفعل لأنني اكتشفتُ خداعه وكذبه فأردتُ أن أثبت لها ذلك، ورحتُ أبكي وأعترف لها أنني تصرفتُ بشكلٍ خاطئٍ وعبرتُ لها عن ندمي.. وقد صدقتني..!!!

صدقتني؟!! أيعقل هذا؟! كم أنّ الناس في هذا العالم سذّج!! لو كنتُ مكانها لحذرتُ من نفسي كثيراً.. عدنا كالسابق نخرج معاً ونسيتُ أمر "روميو" الذي اكتشفتُ فيما بعد أنّه ليس أكثر من مغامرةٍ عابرة أمضيتُ فيها بعض الوقت

الجميل والمسلّي.. أصبحتُ الآن مشغولةً بما هو أكبر من حبّ الرجال!! كانت النار في داخلي دائمة الاشتعال، وكان لا بدّ لي أن أنفّذ انتقامي، انتظرتُ الفرصة المناسبة كي أضع لها في كوب عصير الليمون المفضل لديها بعض الحبوب الكفيلة بجعلها تنام العمر كله!!

بكيتُ كثيراً عليها.. وكذلك فعل "روميو"، حتى أنني تغيّبتُ عن جامعتي لشهرٍ كاملٍ نتيجة صدمتي برحيلها!! كان موتها عزيزاً عليّ.. لكنني ندمتُ لأنني لم أستغلها أكثر قبل أن أقتلها.. ربما أنقذها الموت مني، ولكن كيف سألتقي بها في الآخرة؟!!

الآخرة.. هل سيدخلني الله الجنة بعد كلّ ما قمتُ به؟! ولكنّ الأعمال بالنيّات وأنا نيّتي خيّرة، لم أقصد أبداً أن أؤذي أحداً.. لستُ أنا من قتلها ولكنه كان قدرها أن تموت على يديّ.. أليسَ كذلك يا ربي؟! إني أخافك كثيراً فلا تدخلني النار أرجوك.. فأنا أحبّك..!!

هل أحبك أم أخافك؟!!

****

(2)

كان "ماجد"، عمّ "سمر"، يبدي بعض الاهتمام بي، فقد كان يسأل سمر باستمرارٍ عني وعن حالي عند غيابي.. وعندما كنتُ أذهبُ إليهما، يتحجج بأسخف الأعذار كي يخرج من البيت ولا يراني!

أحببته أكثر.. فهو لا يستسلم بسهولة لأيّ امرأة حتى وإن أعجبته، ربما لأنه عرف نساءً كثيرات في حياته، أو لأنه لا يحبّ ملاحقة المرأة بل يفضل أن ترتمي هي بين يديه!!

رجلٌ تجاوز سنّ الأربعين ببضع خيبات وتجارب.. يعرف كيف يدخل في المواضيع وكيف يخرج منها بالسلاسة نفسها التي دخل بها إلى قلبي وينوي أن يخرج..

لن أخرجه!! لن يستطيع أن يفلت مني بهذه السهولة.. هناك سرٌّ غامضٌ فيه وأنا أعشق الغموض.. استغربتُ فيه أمراً واحداً، أنّه كان يصلي ويصوم، كلنا نصوم عن الطعام والشراب في شهر رمضان فهو تقليدٌ اعتدناه في صغرنا ولم يقرن يوماً بالصلاة، ولكنه كان يصلي خمس مراتٍ كلّ يوم!! هل هذا يعني أنّه سوف لن يلتفت إليّ لأنني لا أصلي؟! ولكنني أحبّ الله وأدعوه كلّ

يوم.. لا بدّ لي إذاً من أن أبدأ بالصلاة كي لا يجد عندي شيئاً يتذرع به حتى يمنع نفسه عن حبي!

كيف عليّ أن أصلي.. من سيعلمني الصلاة؟! يجب عليّ أن أتدبر كلّ أموري كي لا ألفت نظر أحد.. إنه أوّل رجلٍ يجعلني أغيّر شيئاً فيّ كي ألفت نظره.. هذه فعلاً سابقةٌ فريدةٌ من نوعها في حياتي.

بدأتُ أصلي مرّةً واحدةً في اليوم، وقد أصبح عندي سجادة صلاةٍ مع الثياب الخاصة بها، ورحتُ أدعو الله أن يقربني من "ماجد" كما قد تقربتُ منه تعالى!!

واستجاب الله دعوتي، غدونا نخرج سويّاً مرتين في الأسبوع، لم أكن أعرف أنّه يحبّ السياسة ويهتم بشؤون البلد إلى هذه الدرجة.. ظننتُ أنه غربي التفكير في عيشته وحياته، ولكن اتضح لي أنّه يميل أكثر إلى التفكير العربيّ، ويفضّل طبيعة المرأة العربيّة.

كنا جالسين، "ماجد" و"أنا"، في مطعمٍ فخمٍ ورومانسيٍّ وجميلٍ في وسط البلد عندما سألته بشيءٍ من الدلع المحبب..

قلت: "ألا تجدني جميلة؟!"

فأجاب مستغرباً سؤالي: "اسم الله عليكِ.. قمر!!"

قلتُ له ساخرة ومقتبسةً عبارة تقليدية: "كلنا كالقمر، لدينا جانبٌ مظلم!"

ابتسم لجوابي بإعجابٍ كبيرٍ، ولكنه جاهد نفسه على ألا يظهر لي مشاعره..

قال: "جميل.. ولكن مقصدي هو أنني لستُ ممن يغرق في الحب بعينيه!!"

ثم سكت قليلاً وشرد في التفكير..

ثمّ قال مستهجناً: "لماذا تفضل المرأة أن يموت الرجل بها وبحبها في بداية علاقتهما؟!! ألأنها تعلم أنّه سيموت بفعل مكرها بعد ذلك؟!"

قلتُ منفعلة: "هذا ليس صحيحاً ولا ينطبق على الجميع.."

ضحك قائلاً: "يقول الرجل في المرأة ما يشاء، وتفعل المرأة بالرجل ما تشاء!!"

ما أجمل كلامه واقتباساته.. ساحرٌ في تمسكه برجولته!! يأسرني بمنطقه وسلاسته، لقد غدا أن أراه على الدوام مرضاً.. إنّه الحب، مرضٌ أخشى ما أخشاه.. الشفاء منه!!

****

نهضتُ في ذلك اليوم متورمة العينين، لا أدري مَن حسدني، ولكنني أعرف أنّ لي حساداً كثراً.. كان نهاراً كئيباً فأنا غالباً ما أتشاءم بالأحداث الصغيرة التي تحدث معي.

قررتُ ألا أقابل "ماجد" كي لا يراني على هذه الحالة، ثمّ إنّ خالتي سوف تأتي لزيارتي اليوم، وأنا لم أنتهِ منها بعد..

جاءت إليّ حاملةً الحلوى المفضلة لديّ، ربما ظنّت أنها تشتري إحساسي بهذا الفعل، جلسنا نتحدث وكانت تعابيرها تدل على الندم والحزن، حدثتني عن أخي من زوجة أبي الثالثة، وكيف أنه يحوم حول والدي كي يأخذ منه ماله، المشكلة أنني أخاف أن أتحدى إنساناً مثله، ليس لديه ما يخسره، و"أخي" المصون ليس لديه شيءٌ في هذه الدنيا سوى رغباته وغرائزه الشخصيّة، ويعشق المال عشقه للحياة.. لا بدّ لي إذاً من أن أواجهه وأضع حداً لتصرفاته، فأنا البكر في العائلة ولي كلّ الحقّ في أن أفرض سلطتي عليها وعلى من فيها.. ولكن هذا الأمر يحتاج إلى تخطيطٍ ودراسة، وأنا الآن مشغولةٌ بماجد، ولا يسعني التفكير في أحد سواه!!

استمرت خالتي تتكلم وأنا أبدي قلة اهتمامٍ بها وبحديثها كي أشعرها بتفاهتها وصغرها أمامي، أردتها أن تشعر بإحساس الإهمال عندما تتكلم معي.. وإن كانت خالتي!!

يُقال إنّ من العظماء من يُشعِرون مَن حولهم أنهم صغار، أمّا العظيم بحقّ فهو الذي يُشعر جميع مَن في حضرته أنّه عظيم.. ولكنني أميل إلى الواقع الأوّل، فأنا أحبّ العظمة التي تصغّر كلّ من حولها!! وما من عظمة إلا وبها مسحةٌ من الجنون..

وأنا مجنونة..!! أهوى جنوني الذي يعطيني صلاحيّة القيام بما أريد من دون تفكير.. وقد ازداد جنوني مع حبّ "ماجد".. فقد أحببته لذاته وشخصيّته وتفكيره، والمرأة التي تحبّ رجلاً مماثلاً تكون إمّا مجنونة أو ضعيفة، وماضيّ خير دليلٍ على أنني لستُ ضعيفة، ولكنني حتماً.. مجنونة!!!

سألته يوماً بحماسةٍ واندفاع.. كي أطمئنّ على مستقبلي أو أضمن حياتي معه وسعادتي بقربه..

قلتُ: "ماذا يعني لك الارتباط والزواج؟!"

أجابني مستهزئاً: "كما يقولون، الزواج.. ليس أكثر من معاهدةٍ تتيح للمرأة احتلال منزل الزوج على أن يدفع هذا المسكين نفقات الاحتلال!! إنّه كاليانصيب، يغامر فيه الرجل بحريته، والمرأة بسعادتها!"

نظرتُ إليه مستغربة وقلتُ: "تتكلم وكأنك جربتَ هذا الأمر مسبقاً!"

قال: "لقد تزوّجتُ في أوج شبابي وحماستي من امرأةٍ لم أكن أعرفها، على الطريقة التقليديّة، ومنذ ذلك اليوم عرفتُ أن الزواج ليس أساساً للحبّ وأنّ الحبّ لا يؤدي إلى الزواج!!"

سألته متحمسة: "ما كان سبب الطلاق؟!!"

أجاب: "لم يكن هناك توافقًا، وكانت أذواقنا مختلفة تماماً، لم يعجبني ذوقها يوماً!!"

قلتُ له بسرعة بديهة: "لا أنصحك أبداً في أن تطعن في ذوق زوجتك، فقد اختارتك أنتَ أوّلاً!"

ابتسم لي ضاحكاً ومعجباً بكلامي، أو أنّه كان يتوقعه، ثمّ بقي صامتاً من دون أن يعلق على الموضوع!

غريبٌ أمر الرجال، لطالما اعتقدتُ واقتنعتُ أنّ المرأة التي تضيّع عشرين عاماً من عمرها لتحوّل ولدها إلى رجل تستطيع خلال عشرين دقيقة أن تجعله أخرق أمامها.. ولكنني مع "ماجد" لا أظنني أستطيع القيام بذلك ولو قضيتُ العمر كلّه في المحاولة!!

أوصلني في تلك الليلة إلى منزلي.. عندما صعدتُ، كانت أم يوسف جالسةً على الدرج قرب باب بيتها وكأنها تنتظرني.. وعندما رأتني..

قالت بلهجةٍ خبيثة: "أهكذا ستعودين متأخرةً في كلّ يومٍ مع رجلٍ غريبٍ يوصلك إلى بيتك؟!"

نظرتُ إليها باحتقارٍ وقلت: "ألا تشبعين أبداً من الكلام؟! وما شأنك والناس أم أنّه طبعٌ غليظٌ لا بدّ منه؟!"

لا أدري لمَ كنتُ رحيمةً معها في تلك اللحظة، ربما لأنني تعوّدتُ عليها، أو لأنني لا أريدها أن تعكّر فرحتي بعد لقائي بماجد.. أو بكلّ بساطة، أعرف أنّها لا تستطيع القيام بشيء، فاللسان الطويل دلالةٌ على اليد القصيرة.. ولكن رغم ذلك فإنّ حسابي معها سيأتي في وقته وأنا لم أنسَ أمرها بعد!!

عدتُ إلى بيتي أختلي بنفسي لأفكر فيه، وكان في كلّ يومٍ يزيدني تعلقاً به وبأفكاره.. يهوى أرضه وأهله، وهذا دليلٌ على أنّه رجلٌ وفيٌّ وقدير، صاحبُ موقفٍ ورأيٍ وكلمة.. وهذا أجمل ما فيه!!

من كان ليقول أنني سأتعلق يوماً برجل.. أنا التي كنتُ أؤمن بقدرتي على العيش من دون رجال، سرعان ما اختفى إيماني بهذه الفكرة عندما رأيتُ "ماجد" وأحببته.

كنتُ أظنّ أنّ المرأة هي الأساس في حياة الرجل وليس العكس، لذا تستطيع هي الاستغناء عنه في حين لا يقدر هو على الابتعاد عنها..

ولكن المرأة تكتشف سريعاً بعد ذلك أنها بحاجةٍ إلى كنف رجلٍ يحميها فيكون لها الركن الشديد الذي تستند إليه خلاف ما تدعيه بعض النسوة اللاتي ينادين بالتساوي مع الرجل من خلال الاستقلال عنه.

إنها حكمةٌ إلهيّة، حيث خلق الله من كلّ شيءٍ زوجين، وقد آمنتُ بها وبأنها طريقٌ يسير فيه المرء لتكامل البشرية واستمراريّتها، أيعقل أنّ حسّ الأمومة بدأ ينمو بداخلي حتى بدأتُ أميل إلى "ماجد" وإلى الزواج به كي يضمن لي دفء العائلة التي سأكون أمها؟!

جنّ الليل عليّ، فغفوتُ بعد طول تفكيرٍ وقلق على مشهدٍ أخاذٍ للقمر في ليلة اكتماله.. كنتُ أتوق إلى حديث الوجدان مع الجمال المطلق والخلاب، أحببتُ أن أنسلخ عن عالم المادة لأغرق في الخيال وأهيم في طيّات حلمٍ رسمته بمخيّلتي واخترتُ أبطاله بإرادتي.. ولكنني سرعان ما استيقظتُ في الصباح الباكر على صوت "سمر" تكلمني عبر الهاتف وتخبرني بأنها ستتزوّج!!

تفاجأتُ في البداية لأنني لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، ولكنّ انشغالي بماجد، عمّها، جعلني لا أمانع زواجها الذي سيبعدها عنّي..

المهمّ أن يبقى "ماجد" لي، فهو سيلهيني عن كلّ العالم!! لم أعد أحتاج إلى "سمر" الآن، فأنا أيضاً اتخذتُ لنفسي حياةً جديدة، ورجلاً اخترتُ أن أجعله "زوجي"!!

هذا ما رحم "سمر" ومنعني من عرقلة زواجها مع من اختارت، وإن كنتُ قد انزعجتُ من كوني آخر من علم بالموضوع.. ذهبتُ إليها أهنّئها، وكنتُ أعلم

أنّ عمها سيكون موجوداً هناك.. فارتديتُ أجمل ما لديّ وصففتُ شعري بشكلٍ أبدو فيه أصغر سناً، ثمّ دخلتُ وكلّي بهجةٌ وسرور، وكأني أنا من ستتزوّج!!

استقبلني "ماجد" فازدادت فرحتي في تلك اللحظة خاصةً عندما أبدى إعجابه بمظهري وبدا مأخوذاً بي وبجمالي.. دخلتُ كملكةٍ سُلّمت توّاً عرش العالم!!

رأيتُ "سمر" وكانت البسمة تملأ وجهها، أمسكتْ بيدي وأخذتني إلى غرفة الجلوس لتعرفني إلى حبيبها الذي...

الذي كان خطيبي السابق؟!!!

"أحمد".. خطيب سمر!! لا أصدق ما يحصل أمامي..

ارتبك عندما رآني، مدّ يده ليسلّم محاولاً إخفاء ارتباكه وخوفه من أن أفضح أمره!!

كان الرجل الوحيد الذي لم أخبر سمر عنه، ربما لأنّه أثّر فيّ أكثر من الرجال الآخرين.. أحبّني لخمس سنوات، ودامت علاقتنا خمسة أيامٍ فقط!!

تعرفتُ إليه عندما انتقلتُ إلى شقتي الجديدة.. كان جاري في العمارة، رجلٌ مهذبٌ وخلوق، يحبّه الجميع مع أنّه كانت له قرابةٌ بأمّ يوسف.. لم أكن ألتفتُ إليه علماً أنّه ساعدني على حمل أغراضي ونقل الأثاث ومستلزمات بيتي، ومنذ ذلك اليوم عرفتُ أنّه يحبني..

كان ينظر إليّ بطريقةٍ غريبةٍ ونادرة، كلما رآني يبادر في الحديث ليسألني عن حالي والسكن والاحتياجات، وكان يخاف عليّ لأنني أسكنُ وحدي بعيداً عن أهلي وعن رجلٍ يحميني.. لديه من الحميّة والرجولة الكثير، تذكرتُ عندما لحقني شابٌ إلى بيتي وكان الوقتُ ليلاً وكنتُ عائدةً من منزل والدي الذي استدعاني للتعرف إلى أختي الجديدة الرضيعة التي ولدت حديثاً...

كان "أحمد" ينتظرني عند باب العمارة، فرأى ذلك الشاب وبدأ العراك بينهما.. لا أنسى عندما جئته بالثلج أضعه على جبينه المتورم وأشكره على شهامته وموقفه.. ومنذ ذلك اليوم رحنا نتكلم عن الحب، أو بالأحرى صارحني هو بحقيقة مشاعره تجاهي، وبقينا نتكلم طويلاً.. كان يحبني كثيراً، أكثر من أيّ رجلٍ عرفته في حياتي.. وأنا التي لا أحبّ الرجل الذي يحمل قدراً مماثلاً من المشاعر لامرأة!!

وبعد خمس سنوات تمت خطوبتنا، كان اليوم الأوّل جميلاً، كنتُ أريد أن أجرّب إحساس الخطوبة، هذه المرحلة التي تتحدث عنها جميع الفتيات والتي تعتبر أجمل مرحلةٍ في أيّة علاقة حبٍّ بين شابٍ وفتاة..

في اليوم الخامس.. قررتُ أن أفسخ هذه الخطوبة التي بدأتْ تُشعرني بالملل!! ذهبتُ إلى منزل والدي من دون أن أخبره وعدتُ في وقتٍ متأخرٍ من الليل وكنتُ قد أغلقتُ هاتفي كي لا يستطيع الاتصال بي.. وصلتُ فوجدته ينتظرني والغضب بادٍ في عينيه!! كانت أم يوسف قربه تلقي سمومها عليه وتخبره بأكاذيب وأضاليل عني.. راح يصرخ منفعلاً يسألني عن تأخري وغيابي المفاجئ حتى خرج أهل العمارة كلهم يسألون عن سبب هذه الضجة وهذا الصراخ!!

لم أجبه على أسئلته، ولم أبدِ اهتماماً بانفعاله.. بل دخلتُ منزلي بهدوءٍ بعد أن رميتُ له خاتم الخطوبة وأغلقتُ الباب ورائي.. كنتُ أريد أن أفسخ هذه الخطوبة ولكن على طريقتي الخاصة وليس بحسب رغبة "أمّ يوسف" وأكاذيبها وأفعالها المسيئة!!

في اليوم الثاني غيّر "أحمد" سكنه وانتقل من شقته هذه إلى شقةٍ أخرى بعيدةٌ عن المنطقة التي أسكن فيها.. لم أتأثر أيضاً بهذا الفعل لأنني كنتُ قد مللتُ منه ومن أمره، ولكنّ حقدي ازداد على "أمّ يوسف" ورغبتي في تحطيمها راحت تكبر يوماً بعد يوم!!

بعد مرور شهرٍ تقريباً على انفصالنا ورحيل "أحمد"، خرجتُ من منزلي فرأيته واقفاً على عتبة الباب مترددا في طرقه.. نظرتُ إليه مستغربة، بدا عليه التعب والسهر والارهاق.. نظر في عينيّ بألمٍ..

قال متلعثماً: "لم أعرف أنّ والدك كان في المستشفى يجري عمليّة القلب المفتوح.. أقسم أني لم أعرف ذلك إلا البارحة، أرجوكِ أن تسامحيني يا نجوى.. سامحيني!!"

أنا لم أذهب إلى والدي لأنه كان مريضاً.. لم أعرف أصلاً أنه كان سيجري عمليّةً لقلبه، بل ذهبتُ إليه لأفتعل مشكلةً بيني وبين أحمد، كنتُ أريد أن أنتهي من علاقتي معه لأنني أعرف أنه ليس الرجل المناسب لي.. ولكن صودف أن كان والدي مريضاً في ذلك اليوم!!

هل أسامحه وأعود إليه لأستغلّ حبّه من جديد ومن ثمّ أفسخ علاقتي به على طريقتي الخاصة هذه المرة؟!!

لا، لم يكن الشخص الذي يستحقّ أن أؤذيه مرّتين.. يكفيه أنني تركته مرّة واحدة.. نعم، وفي ذلك اليوم طلبتُ منه ألا يعود إلى زيارتي مجدداً، وعرفتُ أنّه استمرّ في حبي لسنواتٍ عديدة، ولم يتعرف إلى فتاةٍ من بعدي أبداً حتى مرّ الوقتُ الطويل وانقطعت أخباره عني.

أَنَسيَ حبّه لي واستبدلني بسمر؟! وهل أنا امرأةٌ قابلةٌ لأن تستبدل بأحد؟! وبمن.. صديقتي؟!!

مددتُ يدي أقابل تحيّته بأحسن منها وأخفي على الجميع معرفتي السابقة به، شعرتُ أنه ارتاح عندما رأى ردة فعلي التي لم تفضح ماضيه وحبّه الكبير والعميق لي.

جلسنا جميعنا.. وبدأت "سمر" تحدثه عني وتمتدحني، أنا صديقتها العزيزة والغالية.. تمتدحني أمام حبيبي السابق، كان يبتسم بعناء وكأنه يعيش في صراعٍ بين حاضره وماضيه!!

عدتُ إلى منزلي والأفكار والتساؤلات تدور في ذهني وتزعجني.. أتراه نسيَ حبه لي؟.. هل أنا أُنسى بهذه السهولة.. وهل "سمر" تشبهني إلى هذا الحدّ ليختارها من بعدي؟!.. لا، أنا لستُ مثلها أبداً!!

أنا أجمل منها بكثير، أفوقها في كلّ شيء.. لطالما كان يحبني وكان ملكي، هل سأقبل الآن أن يكون لغيري؟! هل سأرضى بأن يتزوّج من "سمر" دون أن أتذكر في كلّ مرةٍ أراه فيها أنّه كان يحبني والآن هو يعيش قصة حبٍّ جديدةٍ مع غيري؟!!

بدأ رأسي يخطط ويحلل من دون توقف، وبعد صراعٍ طويلٍ مع ذاتي.. قررتُ العقاب!!!

أُعلن يوم السبت يوم زفاف "سمر" و"أحمد"، وكنتُ أعرف أن "أحمد" سيأتي لزيارتي كي يطمئنّ أنني سوف لن أقول شيئاً لسمر وعائلتها، وكي يتأكد أنني سامحته بعد آخر لقاءٍ وحديثٍ جرى بيننا..

جاء إليّ يوم الخميس، توقعتُ أن يأتي قبل ذلك، المهم الآن أنّه أمامي وفي منزلي.. لم أبدِ له أيّة صدمةٍ أو مفاجأةٍ بزيارته لي، أدخلته برحابة صدرٍ وكأنّ شيئاً لم يكن بيني وبينه.. سألني عن كلّ شيء، استغرب أنني ما زلتُ غير متزوّجة!! كان "أحمد" يعرف أنّ لديّ معجبين كثراً، ولكنني كلما كنتُ أكبر في السن كان عددهم يتقلص شيئاً فشيئاً حتى صرتُ الآن أسعى إليهم كما هي حالي مع "ماجد"!!

أخبرني أنّه ظلّ يحبني لعدة سنوات، وكان يأمل أن أعود إليه أو أن أقبل مكالمته ولكنني كنتُ أصدّه دائماً حتى قرر أن يختار حياته الجديدة!

ولكن لماذا وقع اختياره على "سمر"؟! كرامتي لا تسمح لي قبول هذه الفكرة والعيش عليها!! إذاً لا مناص من التخلص منه ومن ماضيه، وكذلك مستقبله الذي يسعى إلى تكوينه مع غيري..

بينما كنا نتحدث، طرقت "أم يوسف" باب منزلي واستأذنت للدخول.. انزعجتُ كثيراً في بادئ الأمر، فهي دائماً تأتي لتُفشل مخططاتي.. ولكنني لن أسمح لها هذه المرة في أن تفوز.. ما دام الموتُ واحداً، فليكن ثنائياً إذاً.. هكذا يستأنس "أحمد" بصحبة في القبر!!

لطالما تمنيتُ لأمّ يوسف ميتةً متميّزة.. أردتها أن تتعذّب كثيراً قبل أن تموت، أن تندم على كلّ أذيّةٍ وكلّ إساءةٍ قامت بها في حقي.. أردتُ أن أراها ترجوني وتتوسل إليّ حتى أتركها على قيد الحياة، ولكن يبدو لي أنني لن أحقق هذه الأمنية بل ستحصل "أم يوسف" على ميتةٍ مؤنسةٍ ومع رجلٍ مميّز!!

غدوتُ أتلذذ بالقتل.. أنتظره بشوقٍ كي أرتاح!! وكأنه مسكنٌ يريحني ويجعلني أتخلص من كلّ كوابيس الواقع التي تحيط بي..

اليوم أنهي أمرهما.. اليوم أتخلص من عبئهما عليّ إلى الأبد!! سترتاح هذه العمارة من "أم يوسف" وشعوذتها ولسانها الطويل الحاد.. وستتخلص "سمر" من هذه الزيجة المتعبة لتبقى حرّةً تنعم بالراحة والسلام من دون زوجٍ يملي عليها تصرفاتها وأفعالها!!

ذهبتُ أحضر الشاي.. وقد بدأتْ مغامرتي الجديدة تزداد تشويقاً وحماسةً، لحقتني "أم يوسف".. عجيبةٌ هذه المرأة، تأبى الموت حتى آخر نفس لها!! رحتُ أرجوها البقاء مع "أحمد" كي لا يبقى وحده، أتعبتني حتى قبلت الذهاب، كانت تدعي أنها تريد مساعدتي ولكنها أخيراً تركتني أختلي بنفسي وبعملي.. ذهَبَتْ، فوضعتُ ما يحتاجانه من حبوبٍ تكفيهما كي يرتاحا طويلاً.. دخلتُ ببطءٍ منتظرةً اللحظة الموعودة، كنتُ أتلهفُ لموت "أم يوسف" أكثر بكثيرٍ من موت "أحمد".. ولكنّ هذه المشعوذة لم ترد أن تموت!! لعلها كانت تعلم ما أخططه لها، لم ترد أن تشرب الشاي مع أنها تحبه كثيراً.. رحتُ أشجعها على شربه فأحمل كوبي وأصف لذّة الشاي وفوائده الصحيّة!! وأخيراً

حملته.. راحت ترتشف منه رشفاتٍ قليلة.. ولكنها سرعان ما أنهته فتنفّستُ الصعداء أخيراً!!

بدأ أحمد يشعرُ ببعض التعب، فاستأذن للانصراف ورافقته "أم يوسف" تودعه ثمّ أكملَتْ طريقها نحو شقتها.

دخلتُ غرفتي وألقيتُ بجسدي النحيل المثقل على السرير وغفوت..!! غفوتُ على يدين مرتجفتين ولكن.. مرتاحة البال وفرحة، أحسستُ أنه قد آن الأوان لي أن أنام قريرة العين مطمئنة.

مرّت أيّامٌ قليلة.. السواد يملأ عمارتنا، والكلّ يدعي الحزن بمن فيهم أنا!!

ولكنني بكيتُ مع "سمر" بعد أن تأثرتُ لحالها.. لم أفارقها للحظة واحدة، واسيتها بكلّ ما أقدر عليه، وكان "ماجد" يساعدني في ذلك.

المسكينة.. جهزتْ فستان زفافها الأبيض وانتظرت تحقيق حلمها بالزواج! أكان القدر قاسياً عليها حتى حرمها من هذه اللحظة؟!! أم أنني أنقذتها من بلاءٍ كان سيحلّ عليها لو أنها تزوّجته؟!

كانت أطول فترةٍ لي لبست فيها اللون الأسود.. مع أنني أعشق هذا اللون، لطالما اعتبرته لوني المفضل، ولكنني أرفض أن يُفرض عليّ!!

****

في ذلك اليوم لبستُ ثوبي الزهريّ الجميل وخرجتُ مع "ماجد".. بدا لي أكثر جاذبيّةً من ذي قبل... رحنا نتمشى قرب البحر في منطقة الروشة، وكان الغروب قد بدأ يسيطر بمعالمه على الوجود.. لم أهتم يوماً بالطبيعة، ولكنني عندما أكون مع ماجد يصبح للوجود معنى مختلف لم أعرفه من قبل!!

سألني: "ماذا تحبين في هذه الحياة؟"

قلتُ: "كلّ شيءٍ في الحياة جميل! "

أحببتُ أن أكون في تلك اللحظة متفائلة، مع أنّها ليست شخصيّتي، ولم يكن من طبعي في يومٍ من الأيّام أن أشعر بالتفاؤل، لطالما كنتُ متشائمة لأنّ في ذلك مواساةً لي في قدري في هذه الحياة، ولكنني مع "ماجد" أحبّ أن أعيش لحظات التفاؤل!!

قال: "جيّدٌ أن يكون تفكيرك على هذا النحو، ولكنّ أقبح الأشياء أن يكون كلّ شيءٍ جميلاً!"

لم أعلق على كلامه، أحسستُ وكأنّه يريد أن يعارضني فقط، يريد أن يتحداني بفكره!!

سألته: "لماذا تركتَ أمريكا مع أنّه كان لديك عملٌ ممتازٌ هناك كما أخبرتني "سمر"، وجئتَ إلى لبنان مع أنّك حتى الآن ما زلتَ عاطلاً عن العمل؟!!"

ابتسم بسخريةٍ وقال: "العسر في الوطن أحبّ إليّ من اليسر في الغربة!!"

قلتُ مستغربة: "ولكنّك تحبّ ماضيك، وقد عشتَ أغلبه في الغربة!!"

قال: "أنا أحبّ ماضيّ لأنّه ذهب، ولو عاد لكرهته!!"

نظرتُ إليه باستغراب، عجيبٌ أمره وتفكيره، لطالما أحببتُ الغموض ولكنّ غموض ماجدٍ مختلفٌ عمن سواه.. كلّ شيءٍ فيه كان مختلفاً، حتى مظهره!! كنتُ أعرف أنني أعجبه، ولكنّه كان يسعى دائماً إلى نفي ذلك وإنكاره!

قال لي في ذلك اليوم: "المرأة لا تحبّ إلا الأطفال، وتحبّ زوجها أن يكون كذلك.. ولكنني لستُ كذلك!!"

قلتُ: "ومن قال إنني من عيّنات النساء اللاتي عرفتهنّ في حياتك؟!"

ثمّ سكتنا قليلاً.. وشردتُ في أفكاري وآمالي، أتخيّل مستقبلي مع رجلٍ مثله فأبتسم.

قلتُ: "لم أكن أعرفُ أنّك قاسٍ إلى هذه الدرجة!"

قال: "أنا لستُ قاسياً، بل صريح!"

قلتُ: "ألا تدري أنّ الرجل الذي لا يكذب على المرأة لا يُقيمُ وزناً كبيراً لمشاعرها؟!!"

قال بامتعاض: "أسهل شيءٍ في الوجود هو الكذب، ولكن هل إذا كذبنا على مشاعر المرأة الصادقة في إحساسها نكون بذلك قد قدرناها؟! لمَ تطالبن إذاً بحقوق المرأة؟!"

ماذا أجيبه الآن؟! لقد غلبني.. ماذا أقول له؟! رباه لم أكن أدري أنّ اختيار الكلمات أصعبُ من تأليفها إلا في هذه اللحظة.. يجب عليّ أن أقول شيئاً كي لا يظنّ أنّه انتصر عليّ بكلماته!!

قلتُ: "أنا لا أطالبُ بحقوق المرأة لأنني أمارسها كلّ يوم، على العكس.. أظنني أميل إلى المطالبة بحقوق الرجل الذي يمضي أغلب عمره يدفعُ للمرأة كلّ ما لديه!!"

نظر إليّ متشوّقاً..

أكملتُ: "يدفعُ الرجل كرامته عندما يُغازل المرأة، وراحته عندما يفكر فيها، وأعصابه عندما يحبها، ونقوده عندما يتقدم لخطبتها، وكلّ ما تبقى له خاصّةً اسمه عندما يتزوّجها.. وحتى عند موته، يدفعُ لها معاشه وما تبقى له في حياته!!"

فضحك مستأنساً بكلامي وكأنّني خيبتُ توقعاته، لم يعتقد أنني سأساند الرجال بأفكاري، ولكنه لا يدري بعد.. "أنّ كيْدي عظيم"!!

عدتُ في وقتٍ متأخرٍ من الليل.. دخلتُ العمارة مطمئنة البال، لن أجد أم يوسف تنتظرني لتعلق عليّ وتعكر مزاجي!

صعدتُ إلى شقتي أرتجي السبات والحلم الجميل، ولكن ما إن وضعتُ رأسي على وسادة أحلامي تلك حتى أتاني اتصالٌ من منزل والدي!!

ما أمرُ هذه الاتصالات في الآونة الأخيرة، أراها تزداد، وأنا لستُ معتادةً على اهتمام والدي بي!!

كانت ممرضة والدي، أخبرتني أنّ حالته ساءت أكثر من ذي قبل، وأنّه يريدني أن أكون قربه، قلتُ في نفسي لعلها فرصتي الآن كي أبتعد عن "ماجد" وأختبر بذلك حبّه لي، إن كان سيسأل عني في منزل والدي أم أنّه سوف لن يهتم لأمري ولن يسأل عني.. وبذلك يُصبحُ مصيره كمصير الآخرين أمثاله.. أتراني سأقوى على فعل ذلك معه؟!! ولكنني لا أريد أن أخسره.. يجب عليّ أن أجد حلاً لهذا الأمر، لا بدّ من أنّ هناك نقطة ضعفٍ أستطيع أن أدخل إلى قلبه من خلالها!! المهم الآن أن أذهب إلى والدي وأبقى عنده لفترة.

ذهبتُ إليه عند طلوع الفجر أعوده، ولكنّ المشكلة أنّ "أخي" الخبيث من زوجة والدي الثالثة انتقل للعيش معه، ونحنُ الاثنان لا نتفق أبداً، ربما قد آن الأوان لكي أنهي أمره وأُبعدَ شرّه عني إلى الأبد!!

استقبلني أخي بنظرةٍ جافةٍ من دون سلام ولكنني لم أكترث له ولم أبدِ أيّ اهتمامٍ بوجوده، دخلتُ مباشرةً غرفة والدي الذي فرحَ عند رؤيتي وكأنني أزوره للمرة الأولى، كنتُ أنتظره حتى يرجوني للبقاء عنده.. وكما توقعتُ، طلبَ مني ذلك ولكنني هذه المرة وافقتُ على طلبه لأنفذ مخططاتي كما رسمتها!!

كانت الآلات تحيط بأبي من كل جانب تمنعه من التحرك بسهولة، جالسته ورحتُ أكلمه، وكان أخي يُطلّ علينا من فترةٍ إلى آخرى والحقد يتفجر من عينيه، يحاول بأيّة طريقةٍ أن يقاطع كلامي مع والدي ولكنه لم ينجح بذلك لأنّ أبي كان مشدوداً إليّ وإلى حديثي وفرحاً بزيارتي.

لم أره يوماً كذلك، هل ندم على ماضيه ويريد في أيّامه الأخيرة أن يعوّض عليّ ما حرمني إياه في صغري؟!! ولكن هل تعوّض ساعاتٌ قليلةٌ في آخر عمر الإنسان سنين مضت من اليتم والوحدة؟!!

لقد تأخرتَ يا أبي، والمسامحة صعبةٌ في مثل سنّي، لذا سأستغلك هذه الفترة حتى أحقق ما أريده، ومن ثمّ أتركك بسلامٍ تموت ببطءٍ عساك تلقى ربّك فيعذبك هناك على ماضيك الحافل بالمعاصي والظلم!!

عدتُ إلى غرفتي القديمة في منزل والدي، لم يتغيّر شيءٌ فيها، لا زالت كما تركتها وكما رتبتها آخر مرة، وكأنّ أحداً لم يدخل إليها إلا ليزيل الغبار عن بعض جوانبها!!

صُوَري لا تزالُ معلقةً في كلّ مكان، كانت أجملها تلك التي صورها ابن خالي عندما ذهبنا إليهم في الصيف نقضي عندهم بضعة أيّام.. كنتُ وقتها تلميذةً في المدرسة في آخر سنةٍ لي، في أوج جمالي وشبابي وحماستي.. كان يحبني كثيراً، وأنا كذلك كنتُ أحبه!

أمضينا مع بعضٍ وقتاً ممتعاً ورائعاً.. وفي آخر يومٍ لي عندهم في تلك الزيارة أهداني هرّةً صغيرة اشتراها لي لعلمه أنني أحبب الهررة والحيوانات الأليفة.. حملتها بهدوءٍ أتأملها، ولكنها آذتني بأنيابها فرميتها أرضاً بردة فعلٍ عفويّة، فهربت راكضةً وحاولتُ أن ألحقها فأوقفني ابن خالي ليتولّى عني هذه المهمة، وبينما كان يلحق بها دهسته سيّارةٌ مسرعة على الطريق وأكملتْ سيرها من دون أن تتوقف!!

رحتُ أنظر إليه مرميّاً على الأرض.. اقتربت الهرة منه تلتفّ حول جثته وكأنّها تنعاه، وأنا بقيتُ واقفةً في مكاني مرعوبةً من هوْلِ هذا المشهد المخيف وبدني مقشعرٌ ونفسي ترفض ما تراه!!

هل قتلته أنا؟! هل كنتُ السبب في موته؟!! أم أنّه كان لا بدّ له من أن يموت؟!! لعلّ هذا هو قدره ومصيره.. أن يموت بهذه الطريقة ومن أجل هديّةٍ كانت لي!!

لعلّ الهرّة كانت مشؤومة.. لم أعد أريدها!! لن تكون ذكرى جميلة لماضٍ انتهى أسوأ النهايات!!

غفوتُ في تلك الليلة على سريريَ القديم والذكريات تتصارع في ذهني والماضي يحوم حول مخيّلتي بتراتبيّةٍ غريبة.. غفوتُ بعد طول أرق، فوسادتي القديمة تحمل لي من الأحداث الكثير، تحمل ذكرياتٍ طواها العمر مع كتب الماضين وطويتُ صفحاتها لما تحويه من ذاكرةٍ أليمةٍ أريد محوها، ولحظاتٍ جميلةٍ أخشى أن تضعفني!!

مرّ أسبوعٌ بأكمله أمضيته في منزل والدي، هذا البيت الذي لم تستطع السنون أن تغيّر في معالمه إلا الشيء البسيط!! لا يزال كلّ شيءٍ كما تركته، ربما لأنّ والدي لا يحبّ التغيير.. اللهم إلا في النساء!!

لم أتلقَّ اتصالاً من ماجد، ولا حتى من سمر.. لم يأتِ أحدٌ لزيارتي، ربما لأنّ "أم يوسف" ماتت ولم يعد هناك من يُراقب العمارة وأهلها وتحركاتهم ليخبرني عمن جاء لزيارتي.

أيُعقل أنهم نسوني أو عرفوا شيئاً عني؟!! وماذا سيعرفون؟! وهل فعلتُ شيئاً؟! هل من المعقول أنّ الفترة التي قضيتها برفقة "ماجد" لم تؤثر فيه شيئاً على الإطلاق؟!

هل تخلى عني وعن صحبتي بهذه السهولة؟! أو لعله مريضٌ وحالته الصحيّة لا تسمح له بالسؤال عني.. أم أنّه ما عاد يرغب بي؟!!

وهل أنتظره أم أكلمه أنا؟! لا.. إلا هذا.. سأبدو كحمقاء تلحق الرجال مستخفةً بنفسها وقيمتها، وأنا التي ينتظر مني الرجال إشارةً أو حركةً كي يستطيعوا أن يكلموني!!

أصبحتُ أكثر توتراً وغضباً.. لم أكن أتصوّر أن إحساسي تجاه "ماجد" قويٌّ إلى هذه الدرجة، غدا أمره هاجساً يلاحقني.. لماذا ظهر في حياتي، ألكي يعذبني كما فعلتُ أنا مع كلّ الرجال الآخرين؟! هل جاء ليثأر مني ويُشعرني بإحساس الرفض؟!

لم أعرف الرفض يوماً.. كنتُ دوماً مقبولةً عند الجميع ومحببةً لديهم، يحبون مجالستي ورفقتي وأحياناً مجرد النظر إليّ يكفيهم، فقد كان جمالي يأسرهم ويسحرهم، فجمالي يميل إلى الطابع الغربي الأشقر.. ربما لهذا السبب لم يحبني "ماجد"، لأنه يميل إلى الشرقيّات والجمال العربي والسمرة الجذابة والعيون السوداء المكحلة..

هل يمكن أن يكون هذا هو سبب بعده عني مع أنني أعرف أنه ليس سطحيّ التفكير!! وماذا سأفعل الآن، كيف أتصرف وفي داخلي نارٌ وبركانٌ من الغضب والثورة سينفجر!!

ليس أمامي سوى الانتظار، فهو سلاحي الوحيد ومن دونه أكون جنديّاً أعزل وسط معركةٍ من الأحاسيس المضطربة!!

كنتُ في منزل والدي في حالةٍ من التوتر المستمر بسبب وجود أخي، نظراتنا تنبئ بحربٍ قادمة، بإعصارٍ سينسف هذا المنزل ومن فيه.. كان يخاف مني ومن حبّ والدي لي.. يخاف أن أرث أموال والدي كلها ولا يرثُ هو منه شيئاً، وهو الذي يعوّل على نصيبه من ميراث والدي وينتظر كلّ يومٍ موته بفارغ الصبر!!

لن يحصل على ما يريد، لن ينعم بشيء طالما أنا موجودة، أنا أعرف نيّته وهدفه سوف أحرمه من كل شيء حتى اللذة في الحياة، أو ربما أحرمه الحياة نفسها، وقد يرتاح هكذا ويريحني.

و الوالد المسكين المغشوش بأبنائه والذي أشفق عليه وعلى حاله وحياته ولكم فرحتُ عندما لم يسمح لزوجاته الثلاث بالإقامة في منزل والدتي.. مع أنني أتذكر في صغري أن غرفتها قد تلوثت بنساءٍ كثيرات.

لعله تغيّر فعلاً.. ربما يريد أن يكفر عن ذنبه ويغيّر ماضيه كي يموت مرتاح البال ويرتفع إلى ربه مطمئناً.

هل أصبح مؤمناً الآن؟! وهل الموت مخيفٌ إلى هذه الدرجة كي يسعى المرء في آخر لحظات حياته إلى تصحيح أخطاء ماضيه؟!

لم أجرب يوماً رهبة الموت حتى أنني لم أفكر فيه أبداً.. أحبّ كثيراً أن أعرف من مات وكيف مات، فأنا أهوى هذه الأخبار لأنها تشعرني بالراحة والأمان والاطمئنان!!

أنا أحب جميع الأموات.. ولو عادوا أحياء لكرهتهم من جديد!

دخلتُ غرفة أبي بعد أن أخبرتني الممرضة أنه طلب مكالمتي.. جلستُ قربه أتأمله وأنتظر منه أن يبدأ الحديث، أشار إلى غرضٍ على الطاولة فجئته به، طلب مني أن أفتحه فوجدتُ عقد والدتي محفوراً عليه اسمها وإسمي، ثم نظر إليّ وطلب مني الاحتفاظ به.

أحسستُ عندها ولأوّل مرة بقليلٍ من الرأفة والرحمة تجاهه.. أخذتُ العقد وابتسمتُ له ابتسامة شكرٍ اعتاد الجميع عليها، فالابتسامة عندي هي كلمة معروفٍ ولكن من دون حروف!!

انصرفتُ من غرفته، كان لا يزال مستيقظاً، ولكنني شعرتُ معه بالملل والضجر فجئتُ إلى أخي وفي نيّتي التشاجر معه.. كان في غرفة الجلوس يتابع مباراةً لكرة القدم، جلستُ أنظر إليه بطريقةٍ "غبية"، كان قصدي من ذلك تشويش انتباهه وتركيزه على تلك اللعبة، فراح بدوره ينظر إليّ مستغرباً ينتظر مني تفسيراً لتصرفي.. وعندما لم أكترث له صرخ في وجهي ينهرني.. عندها اكتفيتُ منه بعد أن أشبعتُ رغبتي وغروري في إزعاجه،

أحسستُ أني نجحتُ في استفزازه فنهضتُ وحملتُ حقيبة يدي وخرجتُ من المنزل!!

رحتُ أسيرُ من دون وجهة، عندما لا يعرف المرء إلى أين يذهب، فكلّ الطرق تفي بالغرض.. كنتُ أسير ببطءٍ شديدٍ، بقيتُ أسير في الشارع نفسه لساعتين، ثمّ اشتريتُ ورود دوار الشمس المفضلة عندي وعدتُ إلى منزل والدي..

سمعتُ صوته.. حاولتُ أن أكذب أذنيّ، ولكن عندما رأته عيناي... ارتعشتْ!!!

كان هو.. "ماجد"، ينتظرني في منزل والدي، وجدته جالساً قربه يسايره ويحدثه.. هل تراه التقى بأخي الشرير؟! ما بي أفكر كالأطفال.. يجب علي أن أسلم عليه..

تقدمتُ نحوه بحياءٍ عفويّ لأول مرة وسلمتُ عليه.. بادلني السلام بحرارةٍ أكبر ولهفةٍ أقوى..

قال: "اعذريني، لم أستطع المجيء قبل هذا اليوم".

ثمّ سكتَ قليلاً فلم أعلق بل آثرتُ التبسّم له.. بعدها نظر إلى والدي..

قال: "لقد أجريتُ حواراً لطيفاً مع والدك".

قلتُ بتصنع: "لو لم يكن مريضاً لكان الحوار أجمل بكثير!! "

لا أعرف كيف أصف شعوري في تلك اللحظة، كان شعوراً غريباً ومميّزاً، أحببتُ تلك اللحظة لأنني لم أتوقعها، علماً أنني أحبّ أن يتم كلّ شيءٍ حسب تخطيطي.. ولكنّ الخروقات في بعض الأحيان تجذبني.

جلسنا نتحدث.. استأذنتُ قليلاً كي أحضر له القهوة التي يحبها، وقد استغللتُ الفرصة لأرتب نفسي وأصفف شعري، كنتُ أحبّ أن أتزيّن عند لقائه، أحبّ أن يراني على أجمل صورةٍ وأبهى حلة!

دخلتُ الغرفة حاملةً القهوة، فوجدتُ أخي يجالسُ ماجد ويحدثه.. وفجأةً تأهب ماجد واقفاً يستأذن للانصراف ويطلب مكالمتي، فوضعتُ القهوة جانباً ولحقته نحو الباب.. نظر إليّ نظرته الرجوليّة تلك..

قال: "طرأ عليّ أمرٌ مستعجل، أنا مضطرٌ للذهاب، أتمنى لوالدك الشفاء العاجل، أراكِ قريباً إن شاء الله".

استوقفته قليلاً أقول باضطراب: "مهما كان ما أخبرك إياه أخي فلا تأخذ بكلامه أرجوك!"

نظر إليّ متبسماً ثم انصرف..

لا أدري لماذا قلتُ له تلك الكلمات.. ربما لأنني كنتُ أخاف من أخي ومن نيّته تجاهي، فأنا أعرف أنّه يكرهني وهو مستعدٌ لأيّ شيء كي يدمر سعادتي ويقف في طريق نجاحي ومستقبلي.

عدتُ إلى غرفة والدي فوجدتُ أخي جالساً قربه، رمقته بنظرةٍ حاقدة، أحسستُ برجفةٍ في يدي.. تلك الرجفة التي أشعر بها بعد كلّ مرّةٍ أنهي فيها حياة أحدهم!! ولكن رجفتي كانت أقوى في تلك اللحظة..

الآن عرفتُ كيف أنتهي من أمره.. الآن غدا دافعي أقوى من ذي قبل! وإذا مات أخي فسيأتي ماجد كلّ يومٍ لزيارتي كي يواسيني في المأساة التي ستحلّ عليّ وتحزنني.

نعم، أحببتُ هذه الفكرة، ولا بدّ لي من تنفيذها كي أرتاح ويطمئنّ قلبي وبالي، سهرتُ في تلك الليلة أفكر بحيلةٍ جديدة، بوسيلةٍ فريدة تستحقّ مقامه مع أنّه واقعاً لا يستحقّ شيئاً..

مرّ يومٌ جديدٌ بشكلٍ رتيب.. كنتُ قد بدأتُ أشعر ببعض الضعف في بدني بعد أن قلّت نشاطاتي في الآونة الأخيرة.. الأمر الوحيد الذي يشغلني الآن هو أخي، كيف سأتخلص منه ومن أمره؟!

لطالما اعتقدتُ أنّ الأخوّة ليست أكثر من منافسة!! مجموعة أولادٍ يعيشون تحت سقفٍ واحدٍ، يتنافسون على أرزاقهم وأحلامهم وعلى الاستئثار بحبّ الأهل.. وليست كما يدعي البعض، أنّ في الأخوّة السند والعون، لأنّه في نهاية الطريق، كلٌّ له حياته ومستقبله!!

حضرتُ لأخي العزيز الشاي كما طلب مني في ذلك اليوم.. كنتُ كثيرة الإشراق والراحة والطمأنينة، قمتُ بكلّ شيءٍ كما اعتدتُ أن أفعل، ثمّ انتظرتُ الفرج..

أدخلتُ الشاي إليه، كان يجالسُ والدي ويحدثه، وكان أبي مستأنساً بحديثه، تناول مني الكوب ووضعه على الطاولة، وأنا أنظر إليه أنتظر منه الإسراع في شربه كما كان يفعل عادةً.

طال انتظاري، كانت اللحظات بالنسبة إليّ سنوات، كدتُ أموت غيظاً وحرقة مع مرور الوقت، وقد أحسستُ أخيراً بأنّ الفرج بدأ يقترب عندما تحرك أخي ببراءةٍ وهدوء وأمسك كوبه وقرّبه من شفتيه، ولكنّ الممرضة أقبلت نحو والدي فجأةً بصحتها القويّة تلك وفي طريقها ضربت بكوعها يد أخي فأوقع كوبه وسال جهدي هباءً على الأرض!!

تلك الممرضة المزعجة، ما الذي أتى بها في هذه اللحظة؟! ولماذا تأخر أخي كلّ هذا الوقت حتى يشرب الشاي؟! هل كان يشكّ بي وبفعلي؟!! أم أنّه هرّةٌ لديها سبعة أرواحٍ وسيتعبني حتى يموت!!

هذه أوّل عمليّةٍ لي تبوء بالفشل.. وأنا غالباً ما أتشاءم من هذه الكلمة!!

وقفتُ بانزعاجٍ وتوترٍ أصرخ على تلك الممرضة بانفعال، ثم انتبهتُ لنفسي واعتذرتُ منها ورحتُ أنادي الخادمة كي تنظف المكان.. وعرضتُ على أخي من جديدٍ تحضير شايٍ آخر.. ولكنه لم يقبل!!

تماماً كما توقعت، خيبةٌ تتلوها خيبة.. عدتُ إلى غرفتي أفكر، خرجتُ إلى الشرفة قليلاً علّي أتنشق بعض الهواء الطلق، كان يزعجني في شرفة غرفتي

القديمة أنّ الحافة فيها منخفضة جداً، وكنتُ أخاف من الاقتراب منها كي لا أسقط، ونحن نسكن في الطابق الرابع.

الحافة!! هل ما أفكر فيه صحيح؟!! نعم، إنها الحافة.. خلاصي الوحيد وكذلك هي نوعٌ جديدٌ من الوسائل المتاحة لي والتي لم أستخدمها من قبل!!

الحمد لله، الآن بدأتُ أفكر كمحترفة!! الآن أعرف كيف أنتهي من مشاكلي وأتخلص منها!!

يا لهذا العقل الجبار!! إنه لأمرٌ رائع أن تدرك قدراتك وتستخدمها في ما يخدم أهدافك.. لطالما أردتُ أن أكون كذلك، والآن شعرتُ بهذا الإحساس، وكم يطيب لي هذا الشعور.

ولكن هل أغضب الله بذلك.. هل سأدخل النار.. هل سأحرق؟!!

****

(3)

مرّ يومان من الرتابة، ووالدي في حالةٍ متدهورة مع أنّ أشهر الأطباء يعالجونه، شعرتُ أنّه يميل إلى الرغبة في الموت، وأنّه ما عاد يطيق الحياة، أو ربما هذه الأخيرة ما عادت تريده، فغدا ينفر منها شيئاً فشيئاً، لهذا السبب لم أفكر يوماً في قتله أو التخلص منه، لأنني كنتُ أعرف شغفه ورغبته في الموت.. وأنا لستُ معتادة على تحقيق أمنيات الراجين، بل أهوى التلاعب بهم وبهواجسهم ومخاوفهم!!

وهذا ما يفعله معي "ماجد"، فهو يتلاعب بي كثيراً في الآونة الأخيرة ربما لأنه أحسّ بحبي له، يعلم أنني أخاف أن أخسره أو أن أفقده، فيستغلّ خوفي وهاجسي ويتحكم بي!

لم أكن أؤمن قبلاً أنّ لديّ نقطة ضعف، ولكنني سرعان ما أدركتُ أنّ لكلّ امرئ في هذا الوجود نقاط ضعف.. وأوّلها أنّه "إنسان".. {وخلقنا الإنسان من ضعف}.

استيقظتُ ذلك اليوم مرتاحة البال، والنهار مشرق والسكون يعمّ المكان، والزهور تتمايل بنعومةٍ مسايرةً نسيم الهواء الخجول.. كان لديّ إحساسٌ يُنبئني بأنّ كابوسيَ المتعب سينتهي اليوم!!

مرّ النهار بشكلٍ بطيءٍ ومملّ، كنتُ أنتظر عودة أخي بفارغ الصبر.. لا أدري لماذا تأخر، غريبٌ أمره، وكأنّ هناك جنّاً يخبره بأعمالي حتى يستطيع النجاة منها بهذه السهولة!!

عاد عند التاسعة مساءً.. ولكنّه لم يعد وحده!!

.. كان ماجد برفقته!!

أصبتُ بصدمةٍ عندما رأيتهما معاً.. لم أدر ما أقول، انزعجتُ كثيراً، أكان ماجد يحاول استفزازي بتصرفه هذا، خاصةً بعدما أبديتُ له انزعاجي من أخي وطلبتُ منه ألا يأخذ بكلامه!!

ربما شجعته على التقرب منه بطلبي هذا!! يا إلهي.. ماذا فعلتُ بنفسي..؟؟!! جلس "ماجد" معنا قليلاً، ولكنني لم أكن ألتفتُ إليه، كان نظري وغضبي وحقدي متوجهاً نحو أخي، ولم أكن أشاركهما الحديث إلا عندما كان يسألني "ماجد" مباشرةً بعض الأسئلة، وسرعان ما انصرف متعباً من دون أن يقول لي أيّة كلمة، وقد شيعه أخي إلى الباب.

ذهبتُ إلى غرفتي منزعجة، وأحسستُ أنّ أخي يتبعني، والشعور بالنصر والكبرياء يملأه.

أيظنّ بذلك أنّه انتصر عليّ؟! أيظنّ أنّه استطاع أن يستفزني بهذا الفعل؟! الآن تبدو عليه السعادة ولكنه سريعاً ما ستتغيّر معالم وجهه عندما سيرى الموت وملكه!!

الموت.. أحرف الرهبة تلك!!

جلستُ على السرير بغضبٍ، ونظرتُ إليه باشمئزاز، ورحتُ أقول في داخلي "هيّا اقترب من الشرفة حتى أنهي أمرك!".. وفجأةً رأيته يتوجه بهدوء وطمأنينة نحو الشرفة وكأنه سمع ما قلته وينفذ أوامري برحابة صدر.. ازددتُ ثقةً في أنّ هذا هو قدره وأنه كان لا بدّ له من أن يموت الليلة!!

استعدتُ قوّتي وشجاعتي وتلك الرجفة في يديّ التي ترافقني في هذه المواقف، والتي رغم الخبرة التي امتلكها، لا تزال تأتيني بحرارةٍ أقوى في كلّ مرة.

وحصل كلّ شيءٍ كما توقعته وخططتُ له، ورحتُ أصرخ وأبكي، ملأ عويلي أرجاء المنزل.. وصرتُ ألطم على وجهي من الصدمة واللوعة.

موته تطلب مني جهداً ثقيلاً ومتعباً.. وصل صراخي إلى غرفة والدي، فاستيقظ من نومه وراح يصرخ باضطرابٍ وبصوتٍ ضعيف يسأل عما يجري.. ركضت إليه الممرضة مضطربة ولم تدرِ ماذا تفعل..

قالت بارتجاف: "لقد سقط ولدك عن الشرفة!!"

ألا تدري تلك الممرضة أنّ المريض يجب ألا نصدمه بخبرٍ سيّئٍ بهذا الشكل.. لا أدري ماذا حصل فجأة، فقدتُ السيطرة على من حولي، لم أستطع التحكم بسرعة الأحداث.

توقف نبض والدي، وراحت الخادمة تصرخ كالحمقاء والممرضة تحاول إنقاذ والدي بالضغط على صدره علها تلقى منه تجاوباً.

ولكنها تأخرت.. جلطةٌ أصابت والدي وأسكتته هذه المرة إلى الأبد!!

لم أكن أريده أن يموت، كنتُ أفضل أن يبقى حيّاً حتى أحدد أنا مصيره.. ربما كنتُ سأبقيه حيّاً لمدةٍ طويلةٍ.. ولكنها مشيئة الله التي لا مهرب منها، إنها إرادته التي كان لا بدّ لها أن تتم.. ولكن هل لي يدٌ في موته، أكان سيعيش أكثر لو لم يُقتل أخي؟!!

جاءت سيارة الإسعاف ونقلت جثة أخي بعد أن أحاط به أهل المنطقة، وبقيتُ أنا في المنزل أصرخ وأبكي حتى أحسستُ بتعبٍ كبيرٍ في حنجرتي، لم أعرف ماذا جرى بعدها لأننا جميعاً صدمنا بما جرى لوالدي وبعد ثلاث ساعات أتاني اتصالٌ من المستشفى يخبروني أنّ أخي.. لم يمت!!

لم أستطع أن أتحمل وطأة الصدمة عليّ فجلست..

لماذا لا يريد أن يموت.. لماذا لا يريحني منه؟!! بدأ أمره يخيفني ويقذف بي نحو الجنون!!

إنه الآن في المستشفى في غيبوبة بعد أن آذت السقطة على الأرض دماغه، ولكن هناك أملٌ من أن يفيق منها!

لم أدرِ ماذا أجيب ذاك الرجل على الهاتف، تلعثم لساني ربما بدا له سكوتي تعبيراً عن فرحتي وسعادتي بالخبر ولكنني واقعاً كنتُ في قمة الغضب والثورة، وقد قمعتُ انفعالاتي وسخطي كي لا أثير الشبهات.

ذهبتُ إلى المستشفى مسرعة ولكن غرفته كانت مراقبة، فلم أستطع القيام بما تمنيت، جلستُ عنده لبعض الوقت ثم تحدثتُ مع الطبيب، فأخبرني بأن حالته مستقرة الآن وأنه سيقوم بكل ما يقدر عليه، والأمل كبيرٌ له بالنجاة.

تمنيتُ لو أنّ باستطاعتي أن أطلب منه ترك الأمور على حالها، وألا يعالجه أبداً ويتركه كما هو حتى يموت ببطء.. ولكنني اضطررتُ أن أقول عكس ذلك تماماً.. وانهمرت دموعي من دون أن أحتاج هذه المرة إلى التمثيل، كنتُ أبكي حظي الذي تعسّر فجأة..

أشفق عليّ الطبيب وطلب مني العودة..

أيّام من العزاء والبكاء والإرهاق مرت عليّ، يا ليتني لم أقم بهذا الفعل.. لأوّل مرةٍ أندم على فعلةٍ أقومُ بها.. لأوّل مرّةٍ أتمنى لو يعود بيَ الوقت لأصحح خطئي وأقوم بعمليّتي على الشكل الدقيق والمدروس!!

كان "ماجد" يزورني يوميّاً، ولكنني لم أكن أستطيع أن أكلمه براحةٍ أو أن أختلي به، فأنا في حزنٍ وعزاء.. عمّ السواد منزل والدي، اخترتُ لنفسي أجمل ثوبٍ أسود لديّ وارتديته لأستقبل المعزين..

كانت زوجة أبي الثانية تبكي بحرقةٍ وألم، وأما زوجته الثالثة فبدت مصدومة جداً، وكأنها لم تستوعب بعدُ ما حصل لزوجها وولدها.. لم تكن تبكي، ولم تكن تتكلم، ولكن كان يغمى عليها من حينٍ لآخر.. تأثرتُ لحالها قليلاً مع أنني لم أحبها يوماً، كان طبعها حاداً جداً مع أنّ أبي يقول عنها أنها ليّنة العريكة!!.. لم أجدها كذلك، ولستُ أقول هذا لأعارض كلام والدي كما كنتُ أفعلُ في السابق، ولكنني واقعاً لم أحبّ شخصيّتها.. ورغم كلّ هذا أشفقتُ عليها!

أعلم أنّ في داخلي الكثير من طيبة القلب والحنان، ولكنني لو أطلقتُ العنان لإحساسي لصرتُ لعبةً بين أيدي الناس يستغلونني ويظلمونني.. لذلك كنتُ أفضل أن أظلم على أن أكون أنا المظلومة!!

ما زلتُ أمضي أيّام العزاء في البيت، والجدران تقتلني.. وقد اشتقتُ إلى "ماجد" ولا أستطيع مكالمته.. ولكنه كان يُسمعني في كلّ ليلةٍ كلمات عزاءٍ ثمّ يُقفل الخطّ من دون أيّة كلمة حبّ!!

جاءت صديقتي "سمر" لزيارتي، كانت معالمها لا تزال حزينةً بعد فقدانها "أحمد".. عريسها الموعود.. لم تتخطَّ موته بعد، بدت جافةً معي ولكنني لم أكترث لها كثيراً لأنني رأيتُ عمي!!

عمي الذي لم أره من تسعة عشرة عاماً بعد أن تخاصم مع والدي وأقسم ألا يعود إلى منزله أبداً!! لماذا جاء إذاً؟!! هل ليشمت بوالدي بعد موته أم أنّه يحضّر لشيءٍ ما؟!

كان عمي شديد التعصب، يدعي الإيمان والالتزام، لديه لحيةٌ سوداء طويلة، وملامح وجهه تميل إلى الوداعة والطيبة مع أنني أعرف جيّداً ماذا يوجد خلف هذا القناع المزيّف.

مرّ شهرٌ على وفاة والدي.. واستمرّ عمي في زيارتي ومكالمتي بين الفترة والأخرى، يعرض عليّ شفقته أو ربما "سخريته".. وكأنه يقول "لقد استحقّ والدك أن يموت فلا تحزني عليه، موته كان متوقعاً وجزاؤه أن يموت حزيناً"!!

أكره عمي كثيراً.. فهو كوالدي، لا يعرف كيف يُحِبُّ ولا كيف يُحَب!!

كانا يختلفان كثيراً وفي كلّ الأمور، وآراؤهما متناقضة تماماً، وكان سبب اختلافهما أنهما متشابهان جداً.. وفي كلّ شيء كان كلّ منهما يرى حقيقته في الآخر وينكرها!

سعدتُ كثيراً بوجود "سمر" برفقتي، فقد كانت تذكرني على الدوام بماجد، تؤنسني بالحديث عنه وعن مغامراته في الخارج.. كنتُ أخفي عنها حماستي كي أجاري الحزن الذي يجب أن يتملكني في ظلّ وفاة والدي العزيز الذي ما رحمني من العقاب حتى بعد وفاته.

قرأنا وصيّته..

كنتُ شديدة الثقة في أنّ كلّ شيءٍ سيكون لي.. فأنا ابنته البكر، ووالدتي هي زوجته الأولى التي حصدت المعزّة الأكبر عنده!

ولكنني صدمت..!!!

لقد قام بكلّ شيءٍ بحسب الشرع!! منذ متى يعرف والدي الأحكام الشرعيّة؟!! ومنذ متى كان يصلي أو يصوم أو يعرف شيئاً عن الإسلام حتى يتبع شرع الله في وصيّته؟!!

ألم يجد غير هذا الأمر ليطيع حكم الله فيه؟!!

عذراً رباه.. أنا أحبك، ولستُ أعترض على حكمك.. ولكنني أستغرب تصرفات عبادك المرائين، الذين يعيشون حياةً مخادعةً ومزيّنة، وعند موتهم يسعون إلى إصلاح عيوبهم!!

أنا لستُ كذلك يا ربي، وأنتَ تعرفني.. أنا لا أدعي الطيبة وأعرف أنني حقودة.. ولا أدعي مكارم الأخلاق لعلمي بأنني حادة اللسان وقاسيةٌ في الكلام ونمامة.

لا أحبّ ادعاء شيءٍ ليس موجوداً عندي.. أنا صفحةٌ بيضاء.. أو قد تكون ملوّنة، ومليئةٌ بكلّ شيء.. ولكن ينقصها أمرٌ واحد..

ما هو هذا الأمر يا ربي؟!! أرجوك عرفنيه.. فأنا تائهةٌ دونه!!

****

سوف لن أقبل أبداً أن يعيش أخي في منزل والدي بعد وفاته حتى ولو كانت هذه رغبته الأخيرة.. يريدنا أن نسكن جميعاً في منزله!! هذا ما سوف أمنعه بكل الوسائل!!

لن أقبل أن تأتي زوجات أبي ويلوّثن المقعد الذي كانت تجلس عليه والدتي العزيزة..

والدتي الحبيبة.. هل كنتُ أنا السبب في موتها؟!! وهل أنا منذ ولادتي أسبب الموت لمن حولي؟!

كنتُ صغيرةً جداً ولا أعي تصرفاتي.. كان هناك دواءٌ تضعه أمي للحشرات والصراصير والفئران التي كانت تظهر في بعض الأحيان في زوايا منزلنا، وقد عرفتُ فيما بعد أنّ هذا الدواء قويٌّ جداً مما أدى إلى وفاة والدتي.. حصل ذلك عندما كنتُ صغيرةً وأخذت تلك العلبة ورحتُ أفرغ بعضاً من محتواها في كوب والدتي وقد أوقعتُ بعضاً منها أرضاً.. كنتُ ألهو وأتسلّى، جاءت

أمي وأخذت مني العلبة ونظفت الأرض ولم تلتفت إلى أنني رميتُ بعضاً من محتواها داخل الكوب!! راحت تشربه حتى شعرت بشيءٍ غريب..

ربما منذ ذلك اليوم اتخذتُ هذه الوسيلة ملجأي، أو أنّ الله اختارني لهذه المهمة حتى أقوم بما قدّر للناس أو يؤولوا إليه.. "الموت"!!

ربما هي قدرةٌ أو موهبةٌ أعطيت لي ويجب ألا أفرط فيها!!

خرج أخي من المستشفى ليكمل علاجه في منزل والدي، وكنتُ قد تركتُ منزلي لأعيش في منزل والدي لأنّه أكبر حجماً وأكثر راحة!!

هذه فرصتي الآن لأنهي ما لم أستطع إنهاءه في السابق!! يجب ألا يفيق من هذه الغيبوبة وإلا سأعفن في السجن لبقيّة عمري!!

هل هو القدر يُعلمني بأنه سيبقى حيّاً رغم محاولاتي.. وأنّ قدراتي الخارقة لا تفوق إرادة أخي في الحياة؟!! ماذا عليّ أن أفعل؟! لقد بدأت في هذا الطريق إذاً لا بدّ لي من أن أكمله حتى آخر نفسٍ لي!!

قبلتُ وبرحابة صدرٍ أن يأتيَ أخي إلى منزل والدي وأن تبقى الممرضة معه تهتم به وبالآلات التي تحيط به من كل الجهات حتى يستيقظ من غيبوبته تلك!! وكذلك قبلتُ بمجيء زوجات والدي إلى البيت كي لا أثير أيّة شبهات عندما أنهي أمر أخي!! فقد يظنون أني أردتُ أن أختليَ به كي أقتله وآخذ منه ما أورثه إيّاه والدي!!

قتله سيكون سهلاً جداً بالنسبة إليّ خاصةً وأنّه الآن عاجزٌ عن الحركة والتفاعل.. ولكن والدته كانت المشكلة والعقبة الوحيدة أمام تنفيذي لمخططي.. لم تكن تتركه أبداً، كانت تنام بقربه وتراقبه طيلة الليل حتى أنّها كانت تقرأ القرآن عنده مع أنّها لم تحمل المصحف يوماً!!

عجيبٌ أمر هؤلاء الناس.. فهم عند الحاجة مستعدون للقيام بأيّ شيٍ، وعندما يحصلون على مبتغاهم يعودون إلى سباتهم السابق!

كيف يستجيب الله لأمثالهم؟! مثل هؤلاء لا يستحقون نظرة رأفةٍ أو شفقة!! أعذرني يا ربي.. أنا لا أعترض على قضائك وحكمك، وأدري أنّ في ذلك حكمةً وهدفاً، ولكنني أستطيع أن أنتهيَ من هذه العقبة وأرتاح منها ومن أمثالها كي يهنأ العالم ويعيش بسلام!

خرجتُ في ذلك اليوم مع "ماجد" متعبة، مع أنني كنتُ أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر.. اللحظة التي أختلي فيها معه لنقول ما نريد، ولكنني كنتُ باردةً جداً ومملة.

راح يكلمني في السياسة وكأنّه يناقش شخصاً ضليعاً أو خبيراً في هذا المجال مع أنني لم أكن أعرف إلا القليل في هذا الخصوص.

راح يمتدح ذكاء الغرب وغباء العرب، ثمّ أكمل ينتقد العلمانيّة وسياستها في بعض البلدان الغربيّة..

هنا انتفضت.. فأنا علمانيّة إلى أبعد حدود!! بدأتُ أدافع عن هذا الفكر وأبيّن إيجابيّاته وأطرح أمثلةً عن فوائده وأهميّته.

لا أدري لماذا قمتُ بذلك.. لا أتذكر أبداً أنني كنتُ علمانيّةً في التفكير.. ربما كانت رغبةً مني في معارضة "ماجد" بعد أن شعرتُ عليه استخفافاً بأفكاري السياسيّة، فأردتُ أن أخالف رأيه كي ألفت نظره وأثبت وجودي أمامه.. ولو قال إنه علمانيّ ويحبّ النظام الاشتراكي وانتقد مثلاً الفكر الليبراليّ لأصبحتُ ليبراليّةً إلى أبعد حدود!! .. ماذا يفعل بي هذا الرجل؟!

عندما انتهيتُ من مرافعتي الدفاعيّة، رأيتُ ابتسامةً غريبةً ترتسم على وجه "ماجد".. تلك الابتسامة الرحبة التي أعشقها فيه.

قال: "لو أنكِ تعرفين الإسلام ومفاهيمه.. لما قلتِ هذا الكلام!!"

لم أجبه.. أحسستُ وكأنه حسم النقاش بيننا بهذه الكلمات.. أنا لم أقصد أن أقلل من شأن الإسلام عندما امتدحتُ العلمانيّة، لم أقصد ذلك يا ربي!! أنتَ تعرف نيّتي وتعلم ما في نفسي.. كلّ همي كان مخالفة "ماجد" كي أثير إعجابه!!

عدتُ من جديدٍ إلى حالة السكون والملل.. توجهنا إلى مطعمٍ في وسط المدينة، كان المكان جميلاً جداً ومريحاً.. جلسنا فطلب "ماجد" الطعام.

لم تكن عندي رغبةٌ في الأكل، لذلك لم أطلب سوى عصير قصب السكر المفضل لديّ، كنتُ أريد أن أراقب وأتأمل ماجد وهو يأكل.

لطالما كرهتُ الرجل الذي يأكل قليلاً، كنتُ أظنّ أنّ الرجولة لا تكتمل إلا مع الطعام، فمن يأكل قليلاً، يفكر ويعمل قليلاً مما يقلل من رجولته!!

أما الرجل الشره والذي رغم ذلك يحافظ على رشاقة جسده، فإنه حتماً رجلٌ عاملٌ ومفكرٌ!!

نظريّةٌ غريبةٌ ومضحكة، قد لا تمتّ إلى المنطق بصلة ولكنني اقتنعتُ بها وأعجبتني!!

كان "ماجد" يأكل كثيراً.. يعطي للمائدة رونقاً حيث أنه لا يترك طبقاً يعتب عليه! ولم يكن يأكل ببطء، وهذا أكثر ما أعجبني فيه، فهو لا يخجل أمامي من أن يبقى على طبيعته في طريقة الأكل والتصرف.. كلّ شيءٍ فيه يعجبني، وكم أحبّ أن أعبر له عن ذلك ولكنني كنتُ في ذلك اليوم غير متحمسةٍ لشيء.

أنهى طعامه وطلب فنجان قهوة.. فاستأذنتُ للدخول إلى الحمام، لم أغب كثيراً.. دخلتُ فقط للاطمئنان على مظهري وشعري الذي تركته منسدلاً على كتفي كي أبدو أكثر حيويّةً وإشراقاً، ثمّ علّمتُ حمرة شفتيّ كي لا يبهت وجهي، وبعدها عدتُ ورأيته معها!!

من هي تلك المرأة التي يكلمها؟!! ولماذا تضحك له بتلك الطريقة!! كانت ترتدي ثوباً أسودَ جميلاً، وتضع "أكسسواراً" لافتاً، وعندما اقتربتُ منها لفتني عطرها الجذاب!!

من هي هذه المرأة ولماذا تكلم "ماجد"؟!!

اقتربتُ منهما مبتسمة من دون أن أفضح غيرتي، ثم نظرتُ إلى "ماجد" أنتظر منه أن يعرفني عليها.

نظر إليّ ثم قال: "مريم.. زوجتي السابقة".

..... زوجته؟!!

مدت لي يدها بغرورٍ وثقةٍ كمن يستعد لخوض معركةٍ تحتمل جولاتٍ كثيرةٍ ولا احتمال في آخرها للتعادل!!

مددتُ يدي وسلمتُ عليها، بينما أكمل "ماجد" يعرفها عني.. ولكنه لم يقل إنني حبيبته!!

انزعجت..

دعاها للجلوس معنا فازداد الاشتعال داخلي، وهبت ثورةٌ كبيرةٌ في أعماقي.. كنتُ أكثر جمالاً منها.. طبعاً، فجمالي لا يضاهيه شيء، لأنّه مقرونٌ بجاذبيّتي.. حتى أنني أكثر رشاقةً منها!

لكنني شعرتُ بالكثير من الغيرة.. أنا.. ولأوّل مرةٍ أشعر بالغيرة من امرأة!!! استأذنت من صديقاتها قليلاً وجلستْ معنا على الطاولة نفسها بوقاحةٍ وتكبّر.. كانت الطاولة مستطيلة الشكل وكنتُ جالسةً على الكرسيّ المقابل لماجد فجلست هي قربه، وبدأت المعركة..

سألتني: "ماذا تعملين؟"

أجبتها: "أنا الآن توقفتُ عن العمل لآخذ لنفسي فترة راحةٍ ونقاهة!"

قالت: "وكم ستدوم هذه الفترة؟!"

لما هممتُ بالإجابة أكملت تقول: "لأنّه يُقال إنّ من توقف عن العمل وطال مكوثه في البيت قلّت عزيمته وقلّت كذلك فرص عودته للعمل!!"

عرفتُ عندها أنها بدأت جولتها الأولى من التحدي..

قلت: "لا تقلقي.. فمن مثلي لا يمكن الاستغناء عنه بسهولة!!"

قالت: "يبدو أنك في العقد الثالث من العمر".

فنظرتُ إليها مستغربة ولم أجبها..

أكملت: "معظم النساء في هذه السن يصبحن عوانس، لذا لو كنتُ مكانك لاستعجلتُ في أمري وتزوّجتُ سريعاً!!"

ثمّ نظرتْ إلى "ماجد" وأكملت: "حتى وإن كان من سأتزوّجه رجلاً متزوّجاً في السابق ولديه ابن!"

ابن؟!! عن أيّ ابنٍ تتحدث هذه المرأة؟!!

كم أنها قويّةٌ ومحتالة!! بمَ أجيبها الآن بعد أن انتصرت عليّ وماذا أقول بعد أن أخفى عني "ماجد" هذه الحقيقة الهامة؟!!

قررتُ أن أبتسم لها وكأنّ كلامها عاديٌّ جداً بل وغير مؤثرٍ على الإطلاق، ربما لأنّ المهزوم في هكذا حالاتٍ إذا ابتسم يُفقد المنتصر لذّة النصر.. وهذا ما قمتُ به، وقد نجحتُ في أن أفقدها لذة الشعور بأنها غلبتي خاصةً بعد أن انطلق لساني فجأة.

قلت بحدة: "أفضل أن أبقى عانساً على أن أكون مطلقةً فشلت في الحفاظ على بيتها وعائلتها!!"

ثمّ ضحكتُ قائلة: "ولكن مثل هذه الأمور تتعلق بالنصيب والقسمة، وأنا ما زلتُ أنتظر هذا النصيب!"

كنتُ أعيش في هذا الوقت أسوأ لحظات حياتي على الإطلاق.. ولتكتمل مسرحيّتي الدراميّة الحزينة، أقبل عمي إلى ذاك المطعم ورآني فناداني وطلب مني العودة إلى المنزل بعد أن استغرب خروجي من البيت ولم يمرّ شهران على وفاة والدي.. ثم انتقد جلوسي مع "ماجد"!!

وما شأنه هو في حياتي؟!! وهل عاد بعد تلك الفترة لينغص عليّ عيشتي وينتقم مني ومن والدي!!

اضطررتُ أن أسمع كلامه كي لا أفتعل مشكلةً معه، وحتى لا ألفت نظر من حولي.. وكذلك لم أكن سعيدة في تلك الجلسة التي سرقت تلك المرأة رونقها السابق!

عدتُ إلى "ماجد" وأخبرته برغبتي في العودة إلى البيت وبأنّ عمي سيوصلني، ثمّ ذهبت من دون كلمة وداعٍ له، وطبعاً من دون أن أوجه أيّة كلمةٍ لتلك المرأة البغيضة والكريهة!!

غفت بيروت، الليل فيها يحمل معنىً مختلف، يبعد عن التأمل والأحلام ليدخل في عمق التفكير والحسابات الدقيقة، وينتهي بواقعٍ فيه رذائل الأحداث تطغى على محاسنها.. لم أنم في تلك الليلة، فعندما يتغلغل الغضب والحقد في أعماقي لا أستطيع أن أرتاح وأنام!!

لماذا أخفى "ماجد" عني هذا الأمر الحساس والخطير؟!! لماذا لم يخبرني بذلك!! ولماذا لم يدافع عني عندما كانت زوجته السابقة تلك تتحدث بذاك الأسلوب وتلك الطريقة؟!!

وعمي.. ذاك الذي يدعي مكارم الأخلاق ويريد أن ينفّذ وصايته عليّ!! إنه أسوأ يومٍ في حياتي!!

لستُ أنا من يهينني حبّ الرجل!! حتى وإن كان هذا الرجل "ماجد".. ولستُ أنا من يتحكم بي رجل وإن كان ذاك الرجل عمي!!

وأما تلك المرأة.. فلن تسلم أبداً من عقابي وغضبي، لماذا ظهرت في حياتي، هل لكي أنهي أمر وجودها على الأرض أم لكي تنهي وجودي أنا؟؟!!

ما هذا الذي يحصل معي؟!.. كلّ أموري تعسرت بعد أن فشلتُ في قتل أخي!! هل أعطى الله أخي قدرةً أقوى من التي وهبنيها كي يستطيع الانتصار عليّ؟! ولماذا هناك على الدوام تواجدٌ لأفعل التفضيل في كلّ شيء؟!! إن كنتُ قويّةً فما الداعي لظهور من هو أقوى مني؟! هل ليكسر شوكتي ويذلني؟!

ماذا عليّ أن أفعل الآن يا ربي؟!!.. اهدني السبيل الصحيح فأنا مؤمنةٌ بك ومحتاجةٌ إليك!! ولكنني لا زلتُ تائهةً في أمري!

كيف السبيل إلى الراحة والطمأنينة؟.. كيف؟!!

****

مرت عشرة أيّامٍ من دون أن أكلم "ماجد"، كان يهاتفني ولم أكن أجيبه!! وقد جاء إلى منزلي مرّةً ولكنّ زوجة أبي أخبرته أنني نائمة كما طلبتُ منها أن تفعل مع أنّ الوقت كان ظهراً.

أردتُ أن أؤذيه.. أن أُشعره بالألم والحزن، بالحيرة والغضب، بكلّ الأحاسيس المزعجة التي أحسستُ بها في ذلك اليوم!

ولكنني اشتقتُ إليه.. إنه الرجل الوحيد الذي أعجبني وجعلني أسعى بكلّ جهدي حتى ألفت نظره.

لا.. لن أسمح له أن يستخفّ بي ويتلاعب بمشاعري مجدداً!! لن أسمح لقلبي أن يسيطر على عقلي أبداً!!

رحتُ أفكر في عقابٍ له ولزوجته تلك، ولكنني سمعتُ صوت الطبيب يخرج من غرفة أخي.. فذهبت لأرى ماذا يجري هناك!

كانت زوجة والدي الثالثة قد استدعته بعد أن أحست عليه ببعض الحركة، أخبرني الطبيب بأنّ حالته تتحسن كثيراً وبشكلٍ لافت وطلب منا الاستمرار بالاهتمام به على هذا النحو لأنّه بهذه الطريقة قد يُشفى سريعاً!

فرحت والدته كثيراً بهذا الخبر، وكذلك زوجة أبي الثانية مع أنها كانت تكره أخي كثيراً وتغار من أمّه، ربما لأنّه الصبيّ الوحيد في العائلة وهي التي لم تنجب إلا ابنتين.. أو لأنّ والدته تتحدث دائماً عن أبي وتعتبر نفسها المفضلة عنده لأنها "أم الصبي"!!

انزعجتُ كثيراً من هذا الخبر، كل ما يجري حولي سببه ماجد.. شغلني أمره عن الالتفات لأهدافي وأولويّاتي السابقة!!

والآن ماذا عليّ أن أفعل؟! إن استيقظ أخي فسيفضح أمري وسيكتشف الكلّ حقيقتي وسيكرهني "ماجد"!!

وما همّني إن كرهني "ماجد"؟!! .. فأنا الآن أكرهه أيضاً..!! أكرهه كثيراً!!

يا ربي لماذا أخدع نفسي؟!! .. لماذا لا أستطيع أن أكرهه.. لماذا لا أقوى على ذلك؟! ساعدني يا ربي كي أجد حلاً لمشكلتي هذه، لا بدّ لي أن أقتل أخي.. يجب أن أقوم بذلك في هذه الليلة، قد آن لي أن أرتاح منه ومن همه، قد آن لي أن أغفو على وسادتي مطمئنة البال!!

وسادتي.. هل قلتُ وسادتي؟!!

نعم.. إنها الوسادة!! أملي الوحيد المتبقي لي.. أن أخنقه بالوسادة وأنتهي منه إلى الأبد!!

كم أنا عبقريّة.. سوف لن تنجو يا "أخي" من حبائلي وكيدي هذه المرة!! ولكن هناك مشكلةٌ واحدة.. والدته!!

لم تكن والدته تفارقه أبداً، كانت تنام على الأريكة قربه طيلة الوقت.. كيف لي أن أبعدها عنه وكيف أستطيع إقناعها بتركه لهذه الليلة؟!! فخطتي سأنفذها هذه

الليلة لأنّ الوضع لا يحتمل التأخير أو التأجيل، لا بدّ منّ تنفيذها اليوم من دون تقاعس!!

كان الشحوب والتعب بادٍ على والدته لشدّة السهر والبكاء والقلق الدائم.. ذهبتُ أكلمها وأحدثها بطيبةٍ وحنان وقد بالغتُ في وصف شحوب وجهها وحالتها المتدهورة.. ثمّ عرضتُ عليها أن أنام الليلة مكانها كي أراقب أخي حتى تستطيع هي أن ترتاح وتنام بهناء!

رحتُ أبدي لها مدى اهتمامي ومحبتي لأخي وعطفي عليه وعلى حالته!!

لم يستطع أحدٌ يوماً أن يعلم حقيقة تفكيري وأهدافي وعمق حقدي وكرهي له.. بل على العكس، الجميع يعتقدون أني أحبهم وأقدرهم في الوقت الذي لا أكترث فيه لأمرهم.

كان يساعدني في تمثيل هذا الدور وجهي البريء والجميل الذي يخدع من حولي ويوهمهم بأمورٍ أنا أبعد ما يكون عنها!!

كم أحبّ وجهي وأعشقه!! فقد أعطاني الكثير من المعجبين، وساعدني على إنهاء حياة الكثير من السذج، ومنحني القدرة على التلاعب بالغير عبر النظرات الخادعة والابتسامة الكاذبة!!

ولكن هل سيساعدني هذا الوجه على دخول الجنة؟!!

أنا أريد أن أدخل الجنة فهل سأفوز بها؟!! هل سأنال الجنة لمجرد رغبتي بذلك؟!.. كما اعتدت طيلة حياتي أن أنال كلّ ما أريد من دون جهدٍ أو تعب؟!!

بقيتُ لساعتين أحاول إقناع والدته بتلك الفكرة، ولكنها لم تقبل بذلك مع أنها أبدت بعض الميل إلى القبول..

عدتُ مكسورة الخاطر وحزينة.. ولكنني لم أيأس، ذهبتُ إليها من جديدٍ بعد ساعة وأصريتُ عليها من أجل المطلب نفسه، وبقيت أرجوها وأتول إليها حتى قبلت!!

لقد قبلت..!! لأوّل مرةٍ أرى أمّاً توقّع على ورقة قبولٍ بموت ولدها!!

يا لسخرية القدر.. ويا لحسن حظي!!

أخيراً سأحقق آمالي في هذا اليوم.. فأخي جعل حظي يتعسّر منذ أبى أن يموت.. وهذا كان نذير شؤمٍ علي وعلى موهبتي!!

رحتُ أساعد والدته في نقل القليل من حاجياتها إلى غرفتها على أن أنقل أغراضي إلى غرفته كي أسهر قربه الليل بطوله.. فالممرضة ينتهي دوامها عند الساعة الثامنة ليلاً!

كل شيءٍ كان مناسباً لي كي أقوم اليوم بخطوتي الأخيرة.. جلستُ قربه أتأمل ملامحه الهادئة، كان غير مكترثٍ لشيء، كشابٍ مستسلمٍ ينتظر على فراشه أن يلقى حتفه!! وقد قررتُ اليوم أن أمنحه ما يريد.. لا أدري إن كانت هذه فعلاً رغبته، ولكنها تبقى إرادتي التي لا يستطيع منع تنفيذها أيّ شيء!!

بدأتُ أحدثه بينما هو نائمٌ في غيبوبته وأطرافه ممدودة، أخبرته أنّه اليوم سيلقى ربه، وإني قررتُ أن أريحه من هذه الدنيا والعذاب فيها!! لم يبدِ لي أيّة ردة فعل وكأنّ ما أقوله لا يعنيه! فاعتبرت سكوته علامة رضى وازددتُ قناعةً أن اليوم سينتهي كابوسي تماماً!

استمررتُ في الكلام، أحببتُ أن أحدثه عن كلّ شيءٍ قبل أن يموت لأنّه سيكون آخر حديثٍ بيني وبينه.. وكذلك كي أكسب المزيد من الوقت، فإنه من غير المنطقيّ أن أُقوم بفعلتي مباشرةً بعد ذهاب والدته من غرفته.. يجب أن أنتظر بعض الوقت كي لا أثير الشكوك ولا ألفت النظر!

كنتُ أفكر بحجةٍ أو بمسرحيّةٍ أقوم بها بعد موته كي يبدو كلّ شيءٍ مفاجئاً ومريعاً.. مرّت ساعتان على هذا النحو فذهبتُ إلى غرفتي وجئتُ بعدتي وعلى رأسها وسادتي العزيزة والجميلة!!

هل سأستطيع أن أنام عليها ثانيةً بعد أن أخنق بها أخي؟!! أخاف أن تراودني الكوابيس بعد هذه الحادثة!!

لا.. سوف أرمي بها خارجاً بعد أن أنتهي من أمره، ولكن ليس مباشرة، سأخفيها أولاً لبعض الوقت.. هذا هو التفكير السليم!

الساعة قاربت الواحدة بعد منتصف الليل، والرجفة في يدي بدأت تتسارع أكثر فأكثر.. لم أكن خائفة!! كنتُ أرتجف فقط، وأعلم علم اليقين أنّ رجفتي لم يسببها الخوف أبداً، بل لطالما كانت نتيجة رهبة الموقف!!

اقتربتُ من غرفته وأطفأتُ النور، ثمّ جلستُ على الأريكة لأستعيد أنفاسي وقوّتي حتى أقوم بعملي على الوجه الصحيح.

هذه العمليّة الأولى التي تتطلب مني هذا الكمّ من الجهد والإرهاق والترقب.. لم أسهر يوماً على أحدٍ كما أفعل الآن مع أخي!! ولم أستعمل يوماً وسادتي المفضلة في القتل كما أفعل اليوم معه!!

عذراً أيتها الوسادة.. سألوّثك ثم أرميك إلى الزمن الماضي لأنّه لا بدّ لي من أن أكمل طريقي وأستمر في حياتي.. وأنتِ ذكرى لأيامي السابقة الأليمة، فلن أبقيكِ بعد اليوم!

نهضتُ عن الأريكة بعد أن وضعتُ بقيّة أغراضي عليها.. اقتربتُ من جسد أخي فشعرتُ فجأةً أنّ أنفاسه بدأت تتسارع بقوّة.. ربما أحسَّ بما أنوي القيام به فرَهِبَ الموت كما يفعل الجميع.

أكانت دقات قلبه هو التي تسارعت أم أنها دقات قلبي؟!!

في اللحظات الأخيرة، لا يستطيع أحدٌ التركيز، تأملته لآخر مرةٍ قبل أن أمسك بوسادتي..

كانت وسادتي معطرةً بعبق الياسمين.. فليهنأ إذاً بميتته هذه.. ميتةٌ معطرةٌ بأجمل رحيق!!

أمسكتُ الوسادة بقوّة، ثم أخذتُ نفساً وهممتُ بفعلتي..

وإذا بالنور يُضاء فجأة...!!

تجمدتُ في مكاني من دون القيام بأية حركة، ثمّ أدرتُ وجهي رويداً فوجدتُ والدته واقفةً على باب غرفته ترمقني بنظرةٍ غريبةٍ ومريبة!

قالت: "ماذا تفعلين"؟!!

ارتجفت..!!!

****

(4)

لحظاتٌ من الخوف والاضطراب مرت عليّ.. تجمدتُ في مكاني وبقيت الوسادة في يدي.. لم أوقعها أرضاً كي لا يدلّ ذلك على اضطرابٍ أو خوفٍ من قبلي!!

حاولتُ قدر الإمكان السيطرة على نفسي وعلى ثبات صوتي..

قلت: "كنتُ أحضر أريكتي كي أنام، فأحسستُ عليه ببعض الحركة فاقتربتُ منه!"

الحمد لله الذي منحني سرعة بديهةٍ وقدرةً على السيطرة على نفسي وعلى حركات وجهي.. وقد صدقتني زوجة أبي، إما لشدّة سذاجتها أو لشدّة ذكائي وحنكتي!!

قالت: "لم أستطع النوم بعيداً عنه، لم أقوَ على الراحة بعيداً عنه، أفضل أن أبقى بقربه!"

يا لحظّ أخي القوي!! لطالما كان الحظ حليفي أنا.. منذ متى أصبح حليف أخي؟!! لماذا لا أستطيع قتله، لماذا لا يموت؟!! هل عنده قدرةٌ لا مرئيّةٌ تعلمه بأفعالي وتنجيه مني؟!!

أم أنّ الله يريد له الحياة.. وإرادة الله لا قدرة لي على مخالفتها!!

ماذا سأفعل الآن؟ هل أقتلهما معاً؟!! هل أقتله أمامها ثمّ أقتلها هي من بعده وأقول أنّ سبب موتها كانت الصدمة من موت ولدها؟!! ولكن كيف سأقتلهما؟! وهل سأقتلُ عائلتي بأسرها؟!!

إنها ليست من عائلتي فلماذا أكترثُ لها؟!

ابتسمتُ لها ثمّ أخذتُ أغراضي وانصرفتُ عنها إلى غرفتي..

رميتُ بجسدي النحيل المثقل على السرير، ثم وضعتُ وسادتي قرب رأسي ورحتُ أبكي..

لأوّل مرّةٍ بكيتُ بحرقةٍ وحزنٍ من كلّ قلبي!! لا أدري ما كان سبب بكائي.. أكان رثاءً على حالي أم على حظي المتعسّر مؤخراً.. أم أنّ السبب خداع ماجدٍ لي وظهور تلك المرأة مع ابنها في حياتي.. أم أنّه عمي المزعج والمرائي!! أم تراها هذه الأمور جميعها سبّبها لي أخي منذ أعلن حربه عليّ وتحديه لي!!

نعم، إنه أخي.. كالشيطان تجده في كلّ مكان، ولا تستطيع التخلص منه، وعندما تسعى لذلك يتعرقل طريقك فتنزلق!!

رباه! كيف أتخلص منه؟!!

قضيتُ ليلتي تلك بالدموع والحزن.. وغفوت على تلك الدموع وذرات الكون تدور في أرجاء الأفق الواسع، تجول في العلياء بلمعةٍ ساحرة وتمضي سابحةً بين الغيوم، فأخذتُ نفساً عميقاً في حلمي لتنتعش روحي الملوّثة بغبار

الماضي والأيّام الغابرة.. نفسٌ عميق، تتمخض منه رذائل الأحداث بعد أن انصبّ الواقع عليّ فغدوتُ منساقةً إلى رداءته!!

أكره الإحساس بالفشل، وها هو الآن يحيط بي ويخنق صدري.. أشعر بصعوبةٍ في التنفس!! المشكلة أنّ الأصعب من الفشل هو الشعور بالخيبة!! نعم.. خيبة الأمل التي ما زلتُ أشعر بها بعد آخر لقاءٍ جرى بيني وبين من كان من المفترض أن أناديه.. حبيبي!!

أو أنني كنتُ فقط أتأمل ذلك!!

مرّت أيّامٌ قليلة.. كنتُ خلالها أشعر بإرهاقٍ جسديٍّ سببه تعبٌ نفسيٌّ كبير، لم تعد لي رغبةٌ في الحركة والضجة، حتى أنني لم أعد أصلي فرض الظهر الذي عوّدتُ نفسي أن أصليه منذ تعرفتُ على "ماجد"!

لا أدري لماذا توقفتُ عن الصلاة.. أكان تحدياً لماجد أم أنني كنتُ أخالف أمر الله؟!!

لا يا ربي، ما أردتُ بمعصيتي مخالفتك، ولستُ جاحدةً بك أو مستخفةً بنظرك!! ولكنني أمرّ بمرحلةٍ انتقاليّة.. بمرحلةٍ لم أعهدها سابقاً ولا أعرف كيف أصمد فيها!

ألهمني يا ربي.. قلْ لي ماذا أفعل؟!

أغرب الوجود.. هممتُ بالدخول إلى غرفتي ولكنني سمعتُ قرعاً للباب، فتحته بترقبٍ فوجدتُ "سمر" تقف خلفه!

دعوتها للدخول، وحضرتُ لها كوباً من العصير ثم بدأنا نتحدث ونتسامر، لم تزل تلبس الأسود على خطيبها المرحوم، أحسستُ عليها ببعض الارتباك والقلق، ولكنها سرعان ما استجمعت قواها وأخذت نفساً عميقاً ثم ابتسمت ببراءة.

قالت: "كان ماجد قد طلب مني من فترة أن أخبرك بأمر ولده لأنّه فضل ألا يطلعك على هذا الأمر مباشرةً".

ثمّ سكتت قليلاً فلم أبدِ لها أيّ اهتمام..

أكملت: "كان تقصيراً مني، فمنذ وفاة خطيبي "أحمد" وأنا منزويةٌ في منزلي ونسيتُ أن أكلمك في هذا الموضوع!"

فرحتُ كثيراً بما قالته، ولكنني أخفيتُ مشاعري ولم أظهر فرحتي لها.

أكملت: "كان يحاول مكالمتك ليفسر لك الوضع، وكنتِ تصدينه، لذلك طلب مني أن آتي وأخبرك كلّ شيء وأوضح لك حقيقة الأمر باعتبار أنني كنتُ السبب في سوء الفهم الذي حصل بينكما!"

قلت: "لا تهتمي يا "سمر"، لم أكن أكلمه لأنني مررتُ بفترةٍ حرجة ومتعبة، هذا كلّ ما في الأمر!"

كان لا بدّ لي من أن أقول هكذا، فإن ظنّ أن سبب حزني هو غيرتي من زوجته السابقة تلك، أو من وجود ولدٍ في حياته فسيتأكد من حبي له وسيستغلّ نقطة ضعفي هذه!!

أكملتُ حديثي مع صديقتي "سمر"، لا تزال آثار الصدمة تسيطر عليها بعد أن فقدت عريس أحلامها.. لا تزال شاحبة الوجه وكأنها لا تنام، وقد غدت نحيفة بعد أن كانت ممتلئة الجسد!

عرضتُ عليها الذهاب إلى المحل المجاور لنشتري بعض المثلجات، وبعد إلحاحٍ طويلٍ قبلت الذهاب!

لطالما كانت سمر خفيفة الظلّ، لم أشعر يوماً بأنها تشكل عبئاً عليّ، كنتُ أحبها كثيراً ولا زلتُ كذلك، ولكنّ عندي أولويّاتٌ كثيرة ومشاريع أكثر مما جعلني أبعد وأنشغل عنها!

كنتُ أتمنى لها السعادة، ولكن أنى لها أن تسعد قبل أن أجد أنا سعادتي الخاصة؟!! وكيف لها أن تهنأ في حياتها إن لم أحصل بعد على هنائي واستقراري؟!!

لستُ أنانيّة.. ولكنني أحبّ تملك من حولي.. خاصةً من أحبهم!!

ربما قد أكون أنانيّةً في بعض تصرفاتي، ولكنني لا أجد ذلك عيباً فيّ بل على العكس أعتبره شيئاً مغرياً ومضحكاً في بعض الأحيان!

بينما كنتُ أمشي مع "سمر"، سمعتُ صوتاً من ورائي يناديني.. لم أكترث لذلك في بادئ الأمر، فأنا غالباً ما أتعرض للكثير من المعاكسات على الطريق، كان الشبان يلاحقونني وسمر تبعدهم عني وتخبرهم أنني مرتبطة، وكنتُ أبتسم في داخلي وأبدي عدم الاكتراث أمامهم!!

استمر الصوت الرجوليّ يلاحقني.. التفتّ أخيراً إلى مصدر الصوت فكان "حسين".. صديقي السابق، وأحد المعجبين أو المتيمين بي وبجمالي!!

ابتسمتُ له ابتسامةً حنونة.. اشتقتُ إليه كثيراً، فقد مضى وقتٌ طويلٌ لم أره فيه، أو بتعبيرٍ أصحّ، لم أستغله فيه!!

كان "حسين" فاحش الثراء، كثير اللباقة واللطف، طيّب القلب، جميلاً إلى حدّ العجب وكثير الجاذبيّة في المظهر والطلة، لا أنكر أنّه كان أوّل شخصٍ استحقّ وبجدارةٍ أن أدير له عنقي وأن أذكر اسم الله عليه كلما رأيته!

ولكنني لم أعتبره يوماً حبيبي أو رجلي.. نعم، لقد كان صديقي، فهو كثير الوفاء والصدق.. ولكنه لم يكن يشعرني بالتحدي، والرجل الذي لا يعطيني هذا الإحساس، لا أشعر معه بالرغبة في الخوض في قصة حبٍّ لأنني لا أتخيّله بطلها!!

فالبطل بنظري ليس الهادئ والطيب والبسيط المظلوم الذي نعرف قيمته في آخر العرض أو المسلسل، ولكن البطل هو الرجل الثائر القويّ الذي يهوى

التحدي والمنافسة، ويسابق الزمن في الوقت الذي يعيش لحظته بدبلوماسيّته ورقيّه وجاذبيّة شخصيّته.. لا مظهره!!

نعم، لقد كان "حسين" بطلاً مزيّفاً في نظري، لم يكن يتحداني ولا حتى في الأفكار والآراء، كان لديه ميلٌ لأن يقبل كلّ طروحاتي حتى الأفكار البعيدة كلّ البعد عن العقل والمنطق، والتي كنتُ أناقشه فيها في السابق كي أغيظه أو أثير فيه بعض الثورة والرفض!! ولكنني كنتُ أقاتل في ساحةٍ خاليةٍ من كلّ عوامل القتال والحرب!

أحببتُ "حسيناً" كثيراً كأخٍ لي، فقد كان مستعداً أن يفديني بحياته، إنه من الأشخاص الذين قبلوا أن يعيشوا ما تبقى من عمرهم على ذكراي، كان يعلم أني أستغله وأني أستخدمه لأثير غيرة بعض الأشخاص الذين كنتُ أحبّ إغاظتهم أو إبعادهم عني!!

ها قد جاء في الوقت المناسب.. سينفعني كثيراً في علاقتي مع "ماجد"، سأعرف من خلاله إن كان ماجد يحبني أم لا.. إنه وسيلتي الوحيدة!

دعوته للبقاء معنا وعرفته إلى صديقتي "سمر" التي كانت تعلم بأمره وقصته ولكنها لم تبدِ له ذلك.. ربما لأنها لا تزال في حالة حزنٍ وضياع لم تخرج منها بعد!!

عادت "سمر" إلى بيتها، وأكمل "حسين" طريقه معي، أوصلني إلى منزلي ووعدني أن يتصل بي في أقرب وقت.. أحسستُ أنه يأملُ أن أعود إليه.. خاصةً عندما سألني إن كنتُ قد ارتبطتُ بأحد وأجبته بالنفي!! لا يزال يأمل أن أقبل به ولم يعرف بعد لمَ رفضته من الأساس!!

لو أنه حاول قليلاً أن يغيّر بعضاً من شخصيّته كأن يجادلني في أمر ما مثلاً أو أن ينتقد شيئاً فيّ أو أن ينهرني أو ينفعل في وجهي، لربما قبلتُ به زوجاً، فأنا أعشق الرجل الثائر ودائم الغضب وأكره الرجال الضاحكين.. خاصةً وأنّ لحسين أولويّةً عن غيره حيث أنه يتمتع بجمالٍ يسحر كل عين!!

وما نفع الرجل إن كان لا يغضب أو يثور؟!! وما الذي يجذب في الرجال غير نخوتهم وعنفوانهم وقوّة اندفاعهم؟!!

كان ماجد كذلك، فيه كلّ صفات الرجولة أقله في نظري، لديه تفكيره الخاص ومنطقه الخاص وفلسفته المتفردة!! يقبل الجدال ويرفض الاستسلام، يحبّ الحوار ويأبى التسليم.. يعشق الهدوء ويرفض الخمول!!

إنه مثاليٌّ كما أتمناه.. حتى في عقده وجنونه في كلامه ولا مبالاته، حتى في وجهه الذي لا يمتّ للجمال بصلة!

نعم.. إنه هو الرجل الذي أتمناه، والرجل الذي اخترت!!

وماذا اخترت؟! اخترتُ أن أعذبه بنار الغيرة عبر أجمل شابٍ رأيته!! ربما سيشعر بمنافسةٍ قويّةٍ بينه وبين "حسين"، ولكنني أعرف أنه لا يستسلم، فإن كان يحبني فسيناضل من أجلي!

رغم أني أخاف أن أراهن على أمرٍ لستُ أضمن صحته بعد، إلا أني أقبل المخاطرة هذه المرة، ولا بدّ لي من أن أقوم بهذا الأمر حتى أعرف مصيري وعقليّة ماجد في هذه الأمور!!

صعدتُ إلى منزلي ودخلتُ غرفتي والأفكار تأخذني من مكانٍ إلى آخر، وقد عاد وجهي يشرق من جديد بعد أن طال عليه الذبول والملل!

ولمّا وضعتُ رأسي على وسادتي جاءني اتصاله!!

فكرتُ للحظاتٍ ألا أجيبه.. ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن تسمع صوته.

قال: "اشتقتُ إليك!"

لم أجبه.. كدتُ أطير فرحاً وخفتُ أن أقول كلمةً تفضح جنوني!! أكمل حديثه باعتدالٍ وراح يحدثني عن أمورٍ أخرى ويسألني عن حال أخي من دون أن يتطرق لموضوع زوجته السابقة وابنه!!

غريبٌ أمره، هل يتجنب الحديث عنهم عن قصدٍ أم أنه اعتبر أنّ هذا الموضوع انتهى ولا يريد التحدث عنه؟!

لم أعلق على شيء بل ادعيتُ الجفاء مع أنني كنتُ أستمع إليه بلهفةٍ وشوق، وقد شردتُ لبعض اللحظات بصوته ونبرته التي ارتفعت قليلاً عندما حدثني عن ابنة أخته "سمر" وحزنه عليها وعلى حالها!! ثمّ أقفل الخط بعد أن سمع موافقتي على دعوته إلى العشاء الأسبوع المقبل.. أخبرته بأني سآتي مع شخص من دون أن أطلعه على هويّته فلم يمانع!!

ثمّ غفوت.. وهاتفي قرب وسادتي، وصوته ترانيم تناغيني وتلامس أحلامي الجميلة في تلك الليلة، تقذف بي من غيمة إلى أخرى تدغدغ حساسية قلبي المرهف.. فانزلقت دمعةٌ من عيني خلسةً عن أعين حساد الحب، واستحال الماء والملح ندىً عذباً ينهمر بدفءٍ على خدي الناعم يرتجي معانقة الإحساس بعد طول فراق.. مضى وقتٌ طويلٌ لم أرَ فيه مناماً جميلاً ومؤنساً كالذي رأيته في تلك الليلة.. كان كلّ الوجود أخضر وكنتُ أطير في السماء وأحلق إلى الأعلى والسعادة تغمرني والابتسامة تملأ وجهي، ولكنني وصلتُ أخيراً إلى مكانٍ مسدودٍ لم أستطع الارتفاع بعده.. ثمّ استيقظتُ مخنوقة!!

هل سيغلق الله الباب بوجهي عندما سأصعد إليه غداً يوم القيامة؟!! هل يكرهني لأن ماضيّ مليءٌ بالأحداث السيّئة ومستقبلي لا يقلّ سواداً عن الذي كان عليه؟!!

أنا أحبك يا ربي.. وأنت تحبّ عبدك، فلا ترميني وتبعدني عنك، أرجوك ألا تتركني وحدي تائهةً من دون أن تهديني إليك!!

إني أحتاجك وأريد الوصول إليك فدلني إلى طريقك وساعدني!! ساعدني يا الله!!

****

جاء "حسين" لزيارتي بعد يومين، كان يحمل بيده باقة زهورٍ حمراء كبيرة أهداني إياها ثمّ دخل.. تأملتُ تلك الباقة ثمّ وجدتُ بطاقةً كتب عليها ثلاث نقاطٍ من دون أن يقول شيئاً.

ابتسمت.. ثمّ أعطيتها للخادمة كي تضعها في المكان المناسب، ودخلتُ إلى غرفة الجلوس حيث كان ينتظرني.

قلت له ضاحكة: "أنا أحبّ زهور الربيع!!"

لا أدري لمَ قلتُ له هذا، أنا لم أكذب عليه في كلامي ولكنه لم يكن الرد المناسب لتصرفٍ لبقٍ كالذي قام به "حسين"، ربما قمتُ بذلك لأنني لا أعرف كيف أقول "شكراً" أو لأنني لا أريده أن يفهمها على الشكل الخطأ!!

هل لا يزال يحبني فعلاً أم أنه جاء لينتقم مني؟!!

نعم، ربما جاء فقط للانتقام، فقد تلاعبتُ به كثيراً وآذيته كثيراً.. أتذكر عندما جاء إليّ في ذلك اليوم يعرض عليّ الزواج، ركع على قدميه ثم قدم إليّ محبساً من الماس رائع الجمال.. أحسستُ بالسيطرة وأنّ كلّ شيء رهنٌ بإشارةٍ مني فأحببتُ أن أذله، أخبرته أنّ طريقته في عرض الزواج تقليديّة إلى أبعد حدود، وأنها لم تؤثر بي ولم تشعرني بالرغبة في قبول العرض!!

لا أنسى تعابير الصدمة التي ارتسمت على وجهه.. أحسستُ عليه بالخيبة، فأخبرته أني أحبه كثيراً وأنني سوف لن أتزوّج سواه، ولكنني أريد منه أن يقدم لي شيئاً مميزاً.

لم أتوقع أن يقيم لي حفلاً كبيراً كما فعل في أكبر ساحةٍ رأيتها، كان كلّ شيءٍ مزيّناً بالأحمر واسمي مكتوبٌ في كلّ مكان، بدا لي كمهرجانٍ كبير، دعا أشخاصاً كثر وجاءني بقالبٍ كبيرٍ جداً من الحلوى على سطحه محبس الخطوبة.. وبعدها أقبل إليّ بفرسٍ أبيض وكان رائع الجمال في ذلك اليوم، ثمّ اقترب مني وطلب من شابٍ أن يضيء الأضواء الموضوعة على العشب في الأرض، فأضاءت مؤلفةً هذه الكلمات: "هل تقبلين الزواج بي؟".

كانت هذه الجملة مكتوبة باللغة الإنكليزيّة، وقد تأثرتُ كثيراً.. لم أتصوّر يوماً أن يقيم لي أحدٌ حفلاً مماثلاً، أو أن يحبني إلى هذا الحد!!

لا أدري ما الذي يصيبني في حالات كهذه، ربما لأنني أحب كثيراً أن أخيّب آمال الراجين، فاغتنمتُ هذه الفرصة كي أصرخ في وجهه.

قلت: "أنتَ تعلم أني لا أحبك، فلماذا تفعل معي كلّ هذا؟!!"

ثمّ خرجتُ من الحفلة بغضبٍ مع أنني كنتُ أضحك في داخلي.. ولكنني عندما وصلتُ إلى البيت تضايقت، شعرتُ برغبةٍ قويّةٍ في البكاء، ولكنني لم أبكِ!! لا لأنه لا يستحق دموعي، ولكن لأنني لا أريد أن أضعف لأنّ البكاء من علامات البساطة والضعف!!

بعد أسبوعٍ ذهبتُ إلى منزله كي أراه ولكنه لم يرد مقابلتي، فصعدتُ إلى غرفته ورحتُ أكلمه وأبكي وأخبره أني كنتُ مضطربة وأمرّ بوقتٍ عصيبٍ وحرجٍ خاصةً وأنّ عمتي توفيت قبل ليلةٍ من الحفلة فأثر ذلك على نفسيّتي وعلى تفكيري وتصرفاتي!!

تحججتُ بعمتي مع أنني لم أرها يوماً.. ولكن شاءت الصدف أن تكون بالنسبة إليّ حجةً أحاول من خلالها أن أقنع "حسين" بأن يسامحني!!

أخبرته أنني مستعدةٌ لأن أعتذر منه أمام الجميع، كنتُ أبكي لأنني فعلاً لا أريد أن أخسره، فأنا أحبه جداً، هو صديقٌ وفيٌّ وأخٌ مؤنسٌ وطيّبٌ ومريح، ولكنني لا أستطيع أن أحبه بالطريقة التي يتمناها!!

لم يسامحني.. أو أنه سامحني ولكن ما عاد يكلمني كما كان يفعل في السابق!! أصبح يُظهر لي الكثير من الجفاء، وانعدمت زيارته لي وقلت مكالماته الهاتفيّة!!

وها أنا الآن أراه من جديدٍ وأخشى ما أخشاه، أن ينوي الانتقام مني لسوء معاملتي له بعد كلّ الإخلاص والاحترام الذي قدمه لي!!

وماذا لو أنه لا يزال يحبني حقاً؟!! هل سأعذبه من جديدٍ أم يجب عليّ أن أرحمه كي أخفف عن نفسي أعباءً سوف لن أستطيع تحملها فيما بعد!!

جلسنا طويلاً.. وتبادلنا أحاديث كثيرةً عن كلّ الأمور، سألني عن أحوالي وعن كلّ جديدٍ حصل معي بعد غيابه وسفره، فحسين بعد مرور شهرين من تلك الحادثة سافر إلى بلدٍ عربي وعندما عاد لم أره حتى ذاك اليوم!!

أخبرته بكلّ ما لديّ، طبعاً على طريقتي الخاصة، وراح هو بدوره يحدثني عن نفسه، كان يتكلم عن كلّ شيءٍ إلا عن الحبّ والنساء وكأنني كنتُ المرأة الوحيدة في حياته خلال تلك المدة!!

ثمّ دعاني إلى العشاء، فخرجنا سويّاً، كنتُ دائماً أشعر بالدفء كلما خرجتُ معه، والآن زاد على إحساسي السابق الشعور بالحنين.. ما زال كما تركته، لا يحبّ الجدال ويبعد عن المشاكل والاختلافات، مسالمٌ إلى أقصى حدّ!!

لم يكن "حسين" يعرف الله.. لم يكن يحبّ كلّ ما يتعلق بالدين والصلاة ولا يحبّ القيود أبداً!! ولكنه رغم ذلك كان يؤمن بقوّة القدر والنصيب والقسمة.. كان يساعد الفقراء والأيتام، ويعشق الأطفال لأنّه لم يعش طفولته، فقد تركته أمه في صغره وتخلت عنه فرباه والده!!

عدتُ إلى البيت سعيدة، وعند وصولي وجدتُ باقةً من الزهور عند الباب، أخذتها ودخلت.. كانت من "حسين"، كتب لي على البطاقة "ما زلتُ أحبك!"، وأيضاً هذه المرة باللغة الإنكليزيّة..

ابتسمتُ ابتسامةً مشرقة ولكنها لم تدم طويلاً!!!

كان عمي ينتظرني في منزل والدي.. وحاجباه مقطبان ووجهه غاضبٌ وجسده منتفض، راح ينظر إليّ نظرة غضبٍ وحقدٍ، دخلتُ ووضعتُ الباقة جانباً ثم رحتُ أنظر إليه أترقب ردة فعله وكلامه، لا أدري ماذا أصابه بعد وفاة أبي، هل ندم على ما فعله بوالدي أم أنه جاء ليرميَ غضبه وحقده عليّ بعد أن فشل في السيطرة على حياة أبي؟!!

بدأ يصرخ في وجهي ويشتمني!! ألا يدري أن عمري جاوز الثلاثين؟!! ماذا أصابه؟! من يخال نفسه ليكلمني بهذه الطريقة؟!!

قال: "أصبحت تخرجين كلّ يومٍ مع رجل!! ألا تدرين أنك في حداد؟!! ألا تهتمين بكلام الناس من حولك وبمرض أخيك؟!!"

أخفضتُ رأسي ولم أجبه.. ظننتُ أنه من الحكمة أن أسكت بدل أن أبدأ عراكاً أو أن أفتعل مشكلةً معه!!

عندما هدأت ثورته جلس وعاد ليكلمني بطريقة لطيفة، بدأ يسألني عن حالي ووضعي واحتياجاتي.. وكأنه يعتذر لي عبر هذه الأسئلة ولكنه لم يعرف بعد مع من أخطأ، وهذا ليس خطأه الأوّل حتى أستطيع أن أغفر له!!

ما دمتُ أمرّ في فترة عزاءٍ فليكن العزاء جماعيّاً إذاً!! والدي وعمي، الأخوان اللذان لم يلتقيا في دنياهما... سيلتقيان في الآخرة!!

أعجبتني الفكرة.. ولكن لا بدّ لي من أن أؤجلها إلى أن ينتهي موعدي مع "ماجد"، وبعد أن أراه أنهي أمر عمي.. هذا هو التخطيط الأنسب!

ذهب عمي فدخلتُ أطمئن على حال أخي العزيز الذي لا يزال ممدداً على فراشه من دون حراك.. أصبحت والدته شديدة النحول، يكاد يختفي لون وجهها لشدة التعب والسهر والبكاء.. أظن أن أخي سوف لن ينجو من هذه الضربة، أنا لا أرى أن حالته تتحسن كما قال الطبيب بل على العكس أراها تتدهور يوميّاً، فهو لا يقوم بأي جهدٍ حتى يتعافى وربما لم يعد عنده حافزٌ للحياة خاصة بعدما عرف أنني أنا المسيطرة على كلّ الأوضاع والأمور ولا يمكنه منافستي أبداً!!

عدتُ إلى غرفتي بعد يومٍ حافلٍ ومتعب، تمددت على سريري وبدأتُ أحضر خطوتي الجديدة.. بقيتُ مستيقظة حتى الفجر أفكر وألعب بأقدار الناس، لطالما كانت هذه لعبتي المفضلة، كنتُ أتسلى في الكذب على هذا كي يخاصم ذاك، أو تحريض هذه على أذيّة تلك، ولكنني كنتُ دائماً أتذكر الله وأبكي!!

أنا أحبّ الله.. فعلاً أحبه، لا تمرّ مناسبةٌ إلا وأتذكره فيها، وحتى في كلّ يومٍ قبل أن تغفو عيناي أذكره وأطلب منه السماح والهداية والرحمة.. وأعرف إني بحاجةٍ إليه، ويعرف أني أخاف الدخول إلى النار وأسعى بكلّ جهدي كي أنال الجنة؟!!

هل ستدخلني يا ربي إلى الجنة؟! هل تكرهني؟! لستُ مشركةً بك وأنتَ تغفر ما دون ذلك، أنا يا ربي أكره النار والحريق، وبدني لا يتحمل نار الدنيا فكيف الحال بجهنم؟!! هل ستحرقني في النار في يوم الحساب، هل أستحق الحرق رغم إقراري بعبوديّتك؟!!

وهل كانت عبادتي لك خوفاً من نارك؟!!

****

مرّ الوقتُ سريعاً، انقضت الأيّام، وقد أقبل موعدي مع "ماجد".. ذهبتُ إلى وسط البلد وابتعتُ لنفسي أجمل الثياب، لم أخترها أن تكون مغرية، بل على العكس، اخترتُ ثوباً كثير الاحتشام ولكنه كان جميلاً إلى درجة الإغراء خاصةً عندما أرتديه!!

ثمّ رتبتُ شعري بطريقةٍ مميّزة وكالعادة لم أضع شيئاً على وجهي الذي لم يحتج يوماً لأيّ مسحوق تجميل!!

وصل "حسين"، فانطلقنا متجهين إلى المطعم.. كانت من أجمل اللحظات لي في حياتي عندما دخلتُ ذاك المطعم بثقتي المعتادة بنفسي ورأسي المرتفع وقامتي الممشوقة وجمالي الذي استطاع أن يلفت أنظار الرجال والنساء هناك!!

وقف "ماجد" مسلماً عليّ ثمّ أبدى انبهاره بجمالي فاحمرت وجنتاي مع أنني اعتدتُ على مدح الناس لي.. لكنني كنتُ أحبّ أن أسمع ذلك منه، فهو يقول كلّ شيءٍ بطريقةٍ مختلفة عمن سواه!

سلّم على "حسين" بشكلٍ محترمٍ ولبق، ثمّ جلسنا نتساير ونتحدث.. بدأ "ماجد" كعادته يتطرق لمواضيع معقدة في السياسة والاقتصاد في البلد ومشاكل المواطنين، و"حسين" يستمع إليه ويحرك برأسه موافقاً على ما يقوله.

وبدأتُ أنا أعترض وأعلق وأنتقد وأثير في "ماجد" الرغبة في الغضب والثورة، كان استفزازه صعباً جداً، فثقته الكبيرة بمنطقه وتفكيره تجعله يتقبل وبشكلٍ رحبٍ أفكار مَن حوله دون أن يُستدرج أبداً!!

بدا "حسين" في غاية الجمال في ذلك اليوم، ورحتُ خلال العشاء أهتمّ به وأعطيه بعض قطعٍ من الشمندر التي كانت في صحن السلطة خاصتي لأنني أعرف أنه يحبها كثيراً، ولم أفعل ذلك كي أرضيه ولكن كي أثير غيرة "ماجد" وأضايقه!!

كانت "سمر" معنا ولكنني لم أشعر بوجودها.. كلمها "حسين" لبعض الوقت ولكنها كانت تجيب بشكلٍ مقتصر وكأنها تنفر من الحديث!!

وبينما كنا نتكلم قال "ماجد": "أحبّ الطيور، فهي من أجمل المخلوقات في نظري، وأكثر ما يجذبني فيها هي الحرية التي تعيشها وتجسدها في التحليق والطيران!!"

قلت: "وما نفع الطيور إن كانت لا تعرفُ أرضاً تأوي إليها؟!!"

قال: "تقصدين ما نفع الأرض بحدودها إن كانت السماء مقراً لها، وهل من اعتاد الرفعة والعلوّ سيرضى بالهبوط؟! كم أعشق أن أكون طائراً.. يا ليتني أستطيع الطيران!!"

قلتُ محاولةً التذاكي: "مَن يولد زاحفاً سوف لن يستطيع الطيران!!"

قال: "ومن قال إنّ الطيران يعني تحليق الجسد إلى السماء، يمكن للنفس أن تطير في حين يبقى الجسد على الأرض.. أنا أبحث عن النفس الحرة!!"

تلعثمت.. لم أدرِ ماذا أقول، فسكتُّ!!

النفس الحرة؟!! وما هي النفس الحرة؟!! أهي تلك التي نقرر فيها ما نشاء ونقوم بما نريد فنكون أحراراً في أفعالنا وتصرفاتنا؟! أم أنها تلك التي تكون حرةً عندما تعبدُ ربها وتطيع أوامره ولا تعصيه؟!! ومنذ متى تجتمع الحريّة والعبودية في المفهوم نفسه؟!!

بقيتُ صامتة، فلا كلام بعد كلام "ماجد"..!! هذا ما تعلمته مع الوقت ورضختُ له!!

أحبّ هذا الإحساس، فمن اعتاد السيطرة يحبّ الرضوخ في بعض الأحيان ولكن فقط للحبيب.. ولا لأحد سواه!!

كانت جلسته كالعادة، مبهرة وفريدة، وقد أحسستُ أنّ "حسين" قد أُعجب به كثيراً، كنتُ أنظر إليهما وأقوم ببعض المقارنة علّي أجد نقاط تشابه، ولكنّ "ماجداً" لا يشبه أحداً ممن عرفت.. لديه طبعه الخاص وكيانه المتفرد.. لديه خيالٌ واقعيٌّ جداً، فهو لا يسعى أو يفكر في الأحلام إن كان لا يستطيع تحقيقها، فيشغل نفسه بما يستطيع تحقيقه بحسب نطاق القدرة عنده!!

لم أستطع أن أمنع عيني من أن تنظرا إليه نظرات الإعجاب والحب، وقد لاحظ حسين تلك النظرات وبدا عليه الانزعاج.

استأذنتُ قليلاً لدخول الحمام وغمزتُ "سمراً" كي تأتيَ معي ولكنها فضلت البقاء.. لا أدري ماذا يصيبها ولمَ تجْمُدُ فجأةً كلما كلمتها، ولكنني لم أكن أكترث لها في ذلك اليوم، بل كان انشغالي واهتمامي منصباً على "ماجد" خاصةً وأنه مرّ عليّ فترة طويلة لم أره فيها!

لا يزال كما هو، مع الأفكار نفسها والآراء نفسها والجمال نفسه!! ليس جميلاً.. ولم يكن كذلك يوماً!! ولكن لا أدري لماذا أراه دوماً رائع الجمال، ربما هو الحبّ يجعلنا نصوّر من نحبّ على طريقتنا أم أنّ مفاهيم "ماجد" وتفكيره وجمال قلبه طغى على شكله فجعلني أراه من الداخل!!

دخلتُ الحمام، ورحتُ أنظر في المرآة لأطمئنّ على جمالي ومظهري، ثمّ خطرت ببالي فكرة.. لماذا لا يتزوّج "حسين" بـ"سمر"؟!! هكذا أعوّض على حسين خسارته لي فصديقتي "سمر" جميلةٌ ومهذبة، وفي الوقت نفسه أعوّض على "سمر" خسارتها لخطيبها "أحمد"، فحسين شابٌ جميلٌ وذو قلبٍ حنونٍ وطيّب!! نعم، هذا ما سأقوم به.. أعشق أن يتمّ كلّ شيءٍ بحسب إرادتي، فمثل هذه الأفعال تشبع حبّ السيطرة داخلي!!

عدتُ إلى الطاولة، كان "حسين" يتكلم مع "ماجد" بطريقةٍ غريبة، شعرتُ لبرهةٍ أنهما يتشاجران.. تأهب "حسين" واقفاً واستأذن للانصراف!!

طلب أن يكلمني، أمسك بيدي وشدّ عليها حتى كاد يخنقها.. أخذ بي إلى باب المطعم، نظر إليّ بألمٍ وقسوة..

قال: "لا زلتِ كما أنتِ.. معقدة!!"

ماذا يقول؟!! معقدة!! أنا.. معقدة؟! ماذا جرى له ولمَ يتكلم معي بهذا الأسلوب، ماذا فعلتُ له هذه المرة!! بقيتُ صامتةً ومصدومة..

أكمل: "لمَ أتيت بي إلى هنا؟!"

قلتُ باضطراب: "أردتُ أن أقربك من "سمر"، كنتُ أريد أن تعطيني رأيك بها عسى أن يحصل تفاهمٌ أو انجذابٌ بينكما!!"

قال بانفعال: "هل أنتِ عمياء؟!! ألا ترين شيئاً من حولك؟! أم أنك لا ترين إلا نفسك المريضة ولا زلتِ تحبين أن تديري كلّ الأمور كما يحلو لكِ.. تخططين لكلّ شيءٍ كي نكون تحت سيطرتك!! لقد جئتِ بي إلى هنا كي تثري غيرة ماجد.. حبيبك!!"

سكتنا.. مرت لحظات صمتٍ أليمة.. لم أنبس ببنت شفة ولم أحرك ساكناً!!

أكمل: "أتعلمين شيئاً.. أنا لم أعد أحبك!! واليوم تخلصتُ من دائك.. أنتِ لا تعرفين معنى الحبّ، لأنكِ لا تستطيعين أن تحبي!!"

ثمّ مشى بغضبٍ وثورةٍ متوجهاً إلى الباب.. ثمّ توقف فجأة ونظر إليه بطرف عينه..

قال: "أشفق على ماجد لما سيعانيه معك!!"

لا أدري لماذا تأثرتُ إلى هذه الدرجة بكلامه.. فأنا غالباً لا أتفاعل مع المواعظ أو الخطابات التي توجه إليّ، فجميعها تخرج من حيث دخلت وكأنّ شيئاً لم يكن!!

لقد أثر بي كثيراً.. لقد كان قاسياً معي ولكنني لم أنزعج منه، أنا أعرف أنه طيّب القلب وسيسامحني سريعاً وينسى كلّ شيء، ربما تضايق لأنه أحسّ بحبي لماجد فانتفضت رجولته وعزّت عليه نفسه وأراد أن ينتقم لكرامته في تلك الكلمات!!

أحببته كثيراً في تلك اللحظة.. إنها المرة الأولى التي يعارضني فيها ويصرخ في وجهي وينفعل أمامي.. كان مشهداً جميلاً ولافتاً، ولكنه جاء متأخراً فأنا الآن أحبّ "ماجد"، ولو لم يكن الوضع كذلك لخرجتُ خلف "حسين" أناديه وأعتذر منه وأسأله أن يعود إليّ!!

ولكنّ "ماجد" يستحقّ أن أترك من أجله كلّ شيء!!

عدتُ إلى "ماجد"، سعيتُ قدر الإمكان إلى السيطرة على نفسي وعلى تعابير وجهي، سألني عن حسين فحاولتُ أن أبدو طبيعيّة وأخبرته أنه اضطرّ إلى الذهاب لأمر مستعجل.

لم يصدقني "ماجد"، ولم أسع إلى إقناعه!!

قال: "يبدو أنّ حسين يغار كثيراً!"

قلت: "وماذا عنك.. ألا تغار؟!"

قال: "أنا أثق بنفسي، وأعلم ما عندي.."

سكتَ قليلاً ثمّ أكمل: "هل تحبينه؟!"

قلتُ والسعادة تغمرني والفرحة تكاد لا تسعني: "ولمَ هذا السؤال؟!"

قال: "لأنني أعرفك جيداً.. وأعرف أنّ الجمال لا يعني لك شيئاً، لذا فإن اخترت "حسين" لن يكون السبب جماله، لا بدّ إذاً أنك تحبينه!!"

قلتُ محاولةً إغاظته: "إن قلتُ لك نعم فماذا سيكون ردك؟!"

قال: "سأتمنى لكِ التوفيق مع من اخترتِ!"

غضبتُ من جوابه، قلتُ: "أهكذا تستغني، بهذه السرعة؟!!"

قال: "على العكس، أنا حريصٌ على سعادتك إلى درجة الاستغناء عنك!!"

فابتسمت من كلّ قلبي.. أحسستُ في تلك اللحظة أنني تربعتُ على عرش الدنيا وامتلكتُ قلوب العالم!!

إنه يحبني.. ولكنّ رجولته تمنعه من أن يتبع ما يمليه عليه قلبه فلا يسمح لنفسه أن يعبر عن مشاعره بالطلاقة والحرية التي يرغب بها!!

كانت "سمر" تسمعنا وكأنها في عالم آخر.. وكأنّها جسدٌ من دون روحٍ أو عقلٍ أو قلب!! حاولتُ أن أكلمها كي تشاركنا الحديث ولكنها لم تتجاوب معي، فلم أكترث كثيراً لأمرها، فسعادتي بماجد أغنتني عن الإلتفات لها!!

عدتُ إلى منزلي سعيدة.. أعرف أنني خسرتُ صديقاً عزيزاً جداً وإلى الأبد.. ولكنني ربحتُ مقابله حبيباً يغنيني عن الدنيا بأسرها!!

وتذكرتُ الله.. كان لا بدّ لي من أن أصلي كي أشكره على تحقيقه لرغبتي، كنتُ أعلم تماماً أن ما يجري لي يتم تحت إرادة الله.. لم أشكك يوماً بذلك، خوفاً من أن يرميني الله في النار.

صليتُ صلاة العشاء مع أنني لم أعرف يوماً ما هو الهدف منها.. قد أفهم ما تعنيه صلاة الفجر من إبداع الخالق في تصوير الكون، وكذلك في قيام المؤمن

من لذيذ مضجعه إلى الصلاة، وقد أفهم المغزى من صلاة الظهر التي يتوقف فيها المؤمن عن عمله ويترك الدنيا وما فيها كي ينفرد لله بالصلاة، وأيضاً في صلاة العصر حيث أقسم به الله في قرآنه الكريم.. وفي صلاة المغرب، عند غروب الشمس حيث اللوحة الخلابة والإبداع المطلق والعظمة الإلهيّة، حيث تحلو مناجاة الخالق!!

ولكنّ صلاة العشاء..!!! هل بدأتُ أشكك؟! هل هذا اعتراضٌ على أمرك يا ربي؟! هل السبب أنّ عقليَ القاصر المحدود لا يستطيع إدراك الحكمة الكبرى من كل فريضةٍ أنزلتها علينا وأوجبتنا العمل بها!!

هناك أمورٌ كثيرةٌ لا يستطيع العقل البشريّ أن يفهم كنهها.. هل هذا هو سرّ العظمة الإلهيّة؟! أم أنّه دليلٌ على أنّ عقلنا محدودٌ وقدراتنا مقيّدة وآمالنا متعلقة بخطوطٍ رفيعةٍ ترتبط بالسماء حيث تستمدّ قوتها؟!!!

هل قدري أن أجتمع بماجد أم أنّ الله يخبئ لي مصيراً آخر؟! أيعقل أن يخيّرني الله بين الجنة و"ماجد"؟!!

ماذا سيكون اختياري؟! ارحمني يا ربي، أنا ليس لي غيرك.. أنتَ ملاذي الوحيد وبيدك نجاتي فأنقذني!!

لو لم يكن هناك نار.. هل كنتُ سأطمع بالجنة؟!!

****

(5)

أتى النور متسللاً يجرّه الفجر بأذياله محملاً معه أشرعةً ناعمةً ونحيلةً كجسدي، تعكس سحرها على البحر في محاولةٍ لجذب أمواجها إليها، حتى بدائع الخلق تتسابق على البقاء وتتناحر فيما بينها للتصدي والسيطرة.. مثلي تماماً، فأنا أحبّ دائماً أن أكون في الريادة وهذا جزءٌ بسيطٌ من عشقي للسيطرة على كلّ شيء!!

جاء عمي عصر ذلك اليوم إلى منزل والدي الذي أستطيع الآن أن أقول إنه غدا منزلي.. دعوته إلى الغداء، فقد أصبح يهاتفني كلّ يومٍ تقريباً ويحاصرني في كلّ مكانٍ أذهب إليه، وقد آن أوانه أن يموت.. سأنتقم منه على ما فعله بأبي!!

لا أدري واقعاً ما الذي جرى بينه وبين والدي، ولكنني كنتُ أتذكر دوماً أنّ أبي يكرهه بشدة ولا يأتي على ذكر اسمه إلا بالسوء وسيلٍ من السباب والشتم.. لم أكن أعرف سبب ذلك ولم أكترث لأمرهما يوماً!!

جلستُ مع عمي على مائدة الغداء وحدنا، فزوجات أبي لم يرغبن في مشاركتنا هذه الجلسة العائلية الخاصة.

قال: "هل تعلمين لماذا تخاصمتُ مع والدك؟"

فحركتُ بوجهي أجيب بالنفي، فبدأ يسرد عليّ قصةً غريبة اتضح في آخرها أنني كنتُ أنا السبب في هذا الفراق وهذا الكره!! وهل أنا السبب في كلّ المآسي في عائلتي هذه؟!!

أخبرني أنني كنتُ في السادسة من عمري عندما قرر والدي أن يتزوّج للمرة الأولى بعد وفاة والدتي، فاعترض عمي على هذا التصرف مشيراً إلى أنّ هذا الأمر سيسبب حساسيةً وعقدةً عندي في المستقبل، ولكن والدي أصرّ على الزواج وأخبرني عمي أنني وقتذاك تمردتُ وأضربتُ عن الطعام حتى مرضتُ ودخلتُ المستشفى، فجنّ جنون عمي وذهب إليّ يزورني وضربَ والدي على وجهه فكسر له أنفه!

كنتُ دائماً أسأل والدي عن أنفه وسبب اعوجاجه، ولم يكن يجيبني أبداً بل كان يتهرب من السؤال ويغير الموضوع!

ومنذ ذلك اليوم تخاصما ولم يفكر أحدهما بمسامحة الآخر والاعتذار منه، وعمي كثير العناد وقويّ البنية لم يقبل على نفسه أن يعتذر لوالدي رغم علمه وإدراكه سوء تصرفه.

لماذا يخبرني بتلك الأمور الآن.. أيظنّ أنني سأغضّ النظر عنه وأسامحه، هل يخبرني بذلك بعد أن أحسّ بنيّتي في قتله ويحاول الآن أن يستميل عواطفي ومشاعري إليه؟!!

للأسف.. لقد صدر حكم الإعدام قبل أن يصلني دليل البراءة.. ثمّ إن الحكم لم يصدر على عمي بسبب خلافه مع والدي، علماً أنني كنتُ أظنه قد عاد حتى ينتقم مني بعد أن أحرق له والدي سيارته وأمر بعض الرجال بضربه!!

لماذا كان والدي قاسي القلب إلى هذه الدرجة؟!! ولكنه تغيّر كثيراً في آخر أيّام حياته، ربما خشيَ دخول النار فأصبح حنوناً ومحباً كي يعوّض عما فات.. وأين كان هذا الحنان أيام كنتُ بحاجةٍ إليه؟!!

إذا كان جزاء أبي الموت، فكيف لي أن أرحم عمي الذي لا يعلو شأناً عن أبي..؟!! صدر الحكم ولا بدّ لي من تنفيذه!!

كان الطعام شهياً إلى درجةٍ لا يدري فيها المرء أنه يحتوي على ما يجعله يغرق في السبات الأخير والأبدي!!

وعاد العزاء ليملأ أرجاء منزلنا، وعدتُ لأصطنع الدموع والألم.. لكنني لم أحتج إليها كثيراً هذه المرة لأنّ عمي لم يكن الشخص المحبب في عائلتنا والجميع يعرف ذلك!

لا يزال أخي على حاله، طالت غيبوبته مع أنّ الطبيب اعتبر أمره طبيعيّاً، ويأمل أن يتحسن ويعود إلينا في أقرب وقت!

وما أدراهم هؤلاء الأطباء.. وهل يدرون بالغيب كي يتوقعوا أشياء تفوق قدرتهم العلميّة على التحليل؟!!

أنا أعرف أنّ الأطباء بأغلبهم يميلون إلى التشاؤم ويقولون للمريض وأهله كلّ ما يعرفونه بصراحةٍ مؤذية.. ولكنّ هذا الطبيب يختلف عن كلّ الأطباء الذين عرفتهم أو سمعتُ عنهم، فهو لا يتكلم إلا بلسان التفاؤل والبهجة والتوكل على الله!!

التوكل؟! منذ متى لم أتوكل على الله؟! نعم، الآن تذكرت.. منذ وفاة أختي الصغيرة.. كنتُ في الخامسة من عمري، لا أنسى تلك اللحظة مع أنني كنتُ صغيرةً جداً!

في تلك الليلة مرضت أختي كثيراً، كانت الوحيدة المتبقية لي من أمي، أدخلها والدي إلى المستشفى، لا أدري ماذا أصابها كانت أطرافها باردةً ومرتعشة مع أنّ العرق يسيل من وجهها وجسدها.

رآني والدي أبكي فطلب مني التوكل على الله لأنه بذلك تشفى أختي.. لم يكن والدي مؤمناً ولكنه كان كسائر الناس عند الحاجة والمعضلة يلجأ إلى الله ليرتجيه المساعدة ويطلب منه العون!

سمعتُ كلمة التوكل تلك وعلقت في ذهني، أحسستُ أنها الملجأ الوحيد الذي سينجي أختي من الموت كما أوضح لي أبي.. وتوكلتُ على الله ولكنّ أختي ماتت!!!

لم أبكِ عليها، بل كنتُ مخنوقة.. بقيتُ أنظر إلى أبي بتعابير جافة وجامدة، بكى عليها كثيراً ولكنه سرعان ما اعتاد على هذا الواقع ونسيَ أمرها مع مرور الأيّام، أما أنا، فلأنني لم أبكِ عليها لم أستطع نسيانها أبداً!!

ما كانت حكمة الله في أن تموت أختي.. الطفلة الصغيرة التي لم ترَ من هذه الدنيا شيئاً بعد.. هل رحمها الله مما كانت ستراه؟!! أم أنه أبعدها عن طريقي كي لا تعيقني ولا تكون عدوّتي أو منافستي في كلّ شيء.

على كلّ حالٍ أنا متأكدةٌ من أنّ هناك حكمةً في ذلك، وأنّ موتها كان لمصلحتي، ربما جنبني الله قتلها فأبعد شرها عني من أوّل الطريق! يا ليتني أستطيع أن أفكر في كلّ الأمور بالتفاؤل نفسه الذي أوصلني الآن إلى هذه النتيجة!

الآن ارتحتُ من كلّ شيء، الآن تخلصتُ من كلّ أعدائي ولم يبقَ أمامي سوى أخي!!

و"ماجد".. يجب أن أخطط لمستقبلي الذي قررتُ أن أمضيه معه!!

أريد أن أنجب الكثير من الأولاد.. لا، لا أريد أطفالاً بل أفضل أن أبقى معه العمر كله حتى لا يلهيه أيّ شيءٍ عني!! ثمّ إنّ الأطفال غالباً ما يكونون بلاءً لأهلهم، لذلك من الأفضل لي أن أبعد هذا البلاء عني.

ولكن يجب عليّ أن أتخلص من زوجته تلك وابنها.. هذا الولد سيعرقل طريقي ويدمر أحلامي وآمالي وتطلعاتي.. سيمارس تأثيره على والده بأمرٍ من والدته ليحرمني البقاء مع "ماجد"!! لن أرضى بذلك، ولن أبقى مكتوفة اليدين حتى تأخذ تلك البائسة رجل أحلامي بعد أن خسرته هي بإرادتها!!

لا بدّ لي من أن أخطط لشيءٍ ينهي أمرها ويريحني منها من دون أن يتأثر "ماجد" لحالها أو يشفق عليها حتى في موتها!

يجب أن تبقى ذكرى سيئةً في ماضيه لأكون الشخص الوحيد الذي يلهمه السعادة، فهذا ما سيُنجح علاقتنا ويجعله يرى فيّ الإنسانة الأمثل التي كان يبحث عنها من وقتٍ طويلٍ فيندم على اختياره السابق!!

أنا لم أعتد على الارتباط بشخصٍ كان يعرف امرأة قبلي، رغم أنه أنكر حبه لها ولكنها ستبقى مهما فعلتُ أمّاً لابنه.. وهذا ما أكرهه فيها!!

بينما كنتُ جالسةً أفكر جاءت خالتي لزيارتي..

الأحداث التي جرت معي مؤخراً أنستني أمر التخلص منها.. هل أصفح عنها بعد كلّ هذا الوقت؟!!

نعم، أظنني سأفعل ذلك، وهذه ستكون سابقةً من نوعها.. سأمنح خالتي بركة مغفرتي!! سأقوم بهذا العمل للمرة الأولى في حياتي، سأصفح عن أحدهم علي بذلك أرضي الله وأرضي روح والدتي العزيزة.. أمي التي أحببتها وأحببتُ ذكراها وأريد أن أسعدها في قبرها بفعلي هذا!

بدأتُ أكلم خالتي بمحبةٍ وطيبةٍ من دون أيّ تصنعٍ أو تمثيل، وراحت تكلمني بحماسةٍ وكأنه مضى عليها سنين عديدة لم تكلمني خلالها.. ولكنها لا تزال

حزينةً ومقهورة، أحسستُ أنها تريد مني أن أتكلم مع زوجها كي يعودا إلى بعض ولكنها لم تعرف بعد أنه تزوّج من امرأةٍ أخرى!!

أظنّ أنّ الله عاقب خالتي بما فيه الكفاية وأغناني بذلك عن تنفيذ حكمي السابق عليها.. فهي الآن ميتة القلب مع جسد يتحرك من دون هدف!!

قررتُ أن أخبرها بقصتي مع "ماجد"، لا لأنني صفحتُ عنها ولكنني كنتُ بحاجةٍ لإطلاع أحدهم على هذا الأمر، كنتُ أريد التحدث عن "ماجد" وعلاقتنا وعن مدى حبي له وسعادتي معه.. رحتُ أخبرها بكل شيء، كلمتها باندفاعٍ شديدٍ ووصفتُ لها "ماجد" كما أراه.. وقد أحبت خالتي ما وصفته لها مع أنها علقت على بعض الأمور فيما يخصّ زوجته السابقة وابنه!!

كانت محقة، ولكنني لستُ من النوع الذي يتقبل التعليقات، وإن ابتسمتُ في الظاهر!!

ها هي تطلب مني أن أعرفها عليه.. هل أحقق لها تلك الرغبة؟! ولمَ تريد أن تراه، هل تسعى إلى إفساد علاقتي به كما حصل معها؟!!

لماذا تجبرني هذه المرأة على أذيّتها.. كنتُ أريد لها الخير وأحببتُ أن أبقيها على قيد الحياة، ولكنها لا تترك لي الخيار.. إن كانت حياتها ستدمر حياتي فلن أسمح لها أن تهنأ بعيشها أبداً!!

رباه.. لماذا أفكر بهذه الطريقة، لعلها تحاول التقرب مني والتودد إليّ لا أكثر، لعلني أسأتُ الحكم عليها والظنّ بها.

سأمهلها فرصةً أخرى، ساعدني يا رب، ساعدني حتى أعرف حقيقة نواياها تجاهي أرجوك!!

طال الحديث بيني وبينها، ومن ثمّ ذهبت أخيراً.. أنا لستُ من النوع الذي يحبّ الضيوف، ولا أتقبل أغلبهم.. منذ صغري، كلما كان يأتي زوارٌ إلى أبي كنتُ أختبئ في غرفتي مدعيةً النوم أو المرض!!

كلمني "ماجد" كعادته قبل أن ينام، وتحدثنا طويلاً، كلما حاول أن ينهي الحوار أفتح موضوعاً جديداً وأستمع إلى كلامه ونبرته المعتدلة والتي ترتفع من حين لآخر عندما يطرح فكرةً مهمة أو لافتة!

يسألني دائماً إن كنتُ أواظب على صلاتي فأضطر إلى الكذب.. "نعم، أنا لا أترك فرض صلاة".. مع أنني في الواقع لا أصلي إلا مرّةً واحدةً في اليوم!!

أحبّ صلاة الصبح كثيراً، فأنا غالباً ما أكون مستيقظةً في هذا الوقت أفكر وأخطط وأحلل.. كنتُ في بعض الأحيان أفكر في الله وفي خلقه وعظمته، وكلما كنتُ أغوص في هذا التفكير أشعر برغبةٍ قويّةٍ في البكاء، وأنا لا أحبّ أن أبكي، لأنّ مشهداً كهذا يدلّ على الضعف والبساطة، وأنا لستُ كذلك ولا أريد أن أكون!!

ثمّ إن الدموع تليّن القلب وأنا أرفض أن يكون قلبي ليّناً ومطواعاً، بل أريده أن يكون قاسياً وقويّاً حتى يصعب التأثير عليه!!

ولكنني أحبّ الله.. أحبه كثيراً وأخاف من ناره أكثر!! هل سيرميني الله في النار؟!! أعرف أنه لن يحشرني مع الأنبياء والصديقين، ولكن أيعقل أن أكون مع الذين أشركوا بالله وقتلوا رسله؟!! هل سيحشرني الله مع زمرة أعدائه؟! هل سأكبّ على وجهي في النار نتيجة أفعالي؟!!

سامحني يا ربي.. سامحني، لا زلتُ أخافك وأهابك، ولكن لماذا لا أتذكر فظاعة الحرق في النار عندما أقوم بجرمي؟!!

****

كان الصباح مشرقاً ومنيراً، إنه فصل الربيع من أجمل الفصول عندي بعد الخريف!! أحبه فقط لأنّ فيه زهور الربيع، الزهور المفضلة عندي وقد امتلأ منزلي منها في ذلك اليوم.

سيأتي "ماجد" لقضاء النهار بصحبتي وفي منزلي، لم أكن أشعر بوجود زوجات أبي في المنزل، فالأولى تجالس ولدها طيلة الوقت رغم وجود تلك الممرضة، والأخرى تركض خلف بناتها الصغيرات، ترضع واحدة وتطعم الأخرى.

كان منزلنا كبيراً جداً وغرفه كثيرة، كنتُ أحبّ التجوال فيه في صغري، كنتُ أمرّ على كلّ زاويةٍ من زواياه، وقد كان هذا الفعل يشعرني بالتملك والسيطرة.. وكم أهوى هذا الشعور!!

أقبل "ماجد".. غدت طلته عليّ ترجف قلبي، وأنا التي ظننتُ أني أريد أن أمتلكه في البداية ثمّ أرميه في آخر الطريق!! كنتُ أظنّ أنني أستطيع امتلاك قلوب الرجال بأسرهم من دون أن أقع في غرام أيٍّ منهم، والآن أراني لا أملك نفسي فقد امتلكها "ماجد" وامتلكني معها!!

ربما قد آن الأوان أن يأتي الرجل الذي يأخذني من عالم السيطرة ويضعني في عالم الخضوع والاستسلام!

لأوّل مرّةٍ أحبّ هذا المفهوم..!!

دخل "ماجد" إلى غرفة الجلوس فتبعته حاملةً كوب الشاي، كنتُ أعلم أنّ الشاي هو أكثر شرابٍ يؤنسه خلال الجلسات.

تحدثنا قليلاً عن والدي وعن المحنة التي مررتُ بها بعد وفاته، ثمّ سألني عن والدتي وعن الذكريات التي لا زالت مطبوعةً في مخيّلتي منذ صغري، ولكنني سرعان ما غيرتُ الموضوع وجعلته يحدثني عن نفسه وعن كلّ مراحل حياته خاصةً طفولته!! أحببتُ أن أعرف السر في هذا الماضي الذي أنتج ماجد الرجل الذي أراه أمامي الآن والذي استطاع أن يسحرني من أوّل لقاء!!

كانت لديه حكاياتٌ كثيرة ومشاغبات عديدة خاصةً في طفولته مع أهله وعائلته.. لاحظتُ أن لديه من صغره اهتماماتٍ وميلاً شديداً إلى السياسة والأمور المعقدة، وقد تربى في بيتٍ ملتزمٍ دينيّاً واجتماعيّاً!

ربما لهذا السبب يحبّ الالتزام.. حدثني عن الحجاب، وطرح عليّ فكرة ارتدائه بطريقةٍ غير مباشرة، لا أنكر أنني في بادئ الأمر صُدمت ولكنني لم أبد له ذلك وتقبلتُ الفكرة وكأنها كانت واردةً في ذهني في السابق!

أنا أتحجب؟!! إنّ جاذبيّتي بأكملها تعتمد على جمالي، فهل سأحرم نفسي من هذا الأمر، هل يستحق "ماجد" كلّ هذه التضحية وهذا العناء؟!!

نعم، إنه يستحق ذلك.. وأنا أعرف أنه لم يُعجب بي لجمالي، بل أحبني لشخصيّتي القويّة وأسلوبي اللافت وابتسامتي التي ترافق وجهي حتى عند الحزن!!

لم يعلق كثيراً على موضوع الحجاب ولكنها لم تكن المرة الأولى التي يطرح فيها هذا الموضوع.. أعلم أنه يحب أن يتزوّج من امرأةٍ ملتزمة دينيّاً، وها أنا أسعى أن أكون كذلك، ولكن يجب عليّ أوّلاً أن ألتزم من الداخل كي يكتمل بعدها الخارج تدريجياً.. وهذا ما سأفعله بعد أن أتخلص من أخي وزوجة "ماجدٍ" وولده!!

أرجوك يا ربي تحملني حتى ذلك الحين، وأنا أعدك أنني بعدها سأكون مسلمةً لك قولاً وعملاً!!

حضرتُ الغداء بنفسي، أردته أن يتذوّق طعامي، فأنا رغم كلّ عيوبي طباخةٌ ماهرة.. لديّ نفسٌ ذوّاقٌ في الطعام وكذلك في صنع الحلوى.

بينما كان "ماجد" يأكل مستأنساً قُرع باب المنزل وأقبلت خالتي!!!

منذ يومين كانت عندي فما الذي جاء بها في هذا اليوم؟!! توقيتها سيئٌ جداً، كيف لي أن أطردها من هنا؟!!

استقبلتها بابتسامةٍ كبيرة مصطنعة وعرفتها على "ماجد"، ثمّ دعوتها للجلوس معنا على مائدة الطعام.. فجلست!!

ها هي الآن تشاركني في خصوصيتي ولحظاتي الحميمة مع "ماجد" ولا تدعني أتكلم براحةٍ أو أن أسمعه كما اعتدتُ أن أفعل!! إنها تدير الحديث بالطريقة التي تريدها.. لطالما كانت تتفلسف في كلّ الأمور، ويبدو أنّ "ماجد" أحبّ جلستها فهو يتفاعل معها بشكلٍ لافت!!

إنها تتطفل على حياتي وعلى أجمل لحظةٍ لي مع حبيبي.. هل تقوم بذلك لتريني أنّ بوسعها القيام بما تشاء في الوقت الذي تريد؟!! وهل تظنني سأسكتُ عن هذا الوضع، هل سأغضّ النظر عن اقتحامها حياتي ولحظاتي الخاصة وتسييرها للجلسة على هواها!! من تحسبني هذه المرأة؟!!

ها هما يتكلمان وكأنهما يعرفان بعضهما منذ زمنٍ بعيد، إنها لا تتوقف عن الكلام وهو يصغي إليها بتمعنٍ واندفاع!!

رباه، ماذا يجب عليّ أن أفعل، إنها تلفت نظره وتزيح اهتمامه عني، إنها تسرقه مني وتريد بذلك أن تسترد ما ظنت أنني أخذته منها.. تريد أن تفقدني "ماجد" كما أفقدتها زوجها، كم أنها حقودةٌ وقاسية القلب، وما ذنبي أنا إن كانت غيرتها العمياء قد أودت بعلاقتها مع زوجها إلى الطلاق؟!! هل سأدفع أنا الآن جزاءً اقترفه غيري وأحمل عبئاً ليس لي.. هل تنوي أن تدمر لي حياتي وتضيّع مستقبلي؟!

قدمتُ لهما الحلوى.. كم كنتُ سعيدةً لحظة أعددتها وأنا أفكر بماجد وكيف ستكون ردة فعله عندما سيتذوقها.. لقد أفقدتني خالتي هذه اللحظة، كانت تتكلم كثيراً إلى حدّ شغلت به تفكير "ماجد" عن أيّ شيءٍ آخر!!

كنتُ أعرف أنّ شخصية خالتي جميلةٌ ولافتة، ولكنها لم تكن تعجبني لأنها متفلسفة جداً، تفهم في كلّ الأمور وتعطي المحاضرات في كلّ شيء.. وأنا التي لا أحبّ الفلسفة وأكره المحاضرات!!

كم سيدوم بقاؤها في منزلي.. كيف لي أن أعبّر عن انزعاجي بوجودها، كيف لي أن أريها مدى كرهي لها، وأني أتمنى لها الموت اليوم قبل الغد!!

نعم، أتمنى أن تموت.. وسوف تموت، يجب عليها أن تموت كي أنتقم من كلّ لحظةٍ أبعدتني فيها عن "ماجد" مع أنه كان قاب قوسٍ أو أدنى مني!!

أصعب إحساسٍ هو عندما يكون الحبيب بين يديك ولا تستطيع الوصول إليه!! لا أحبّ أن يأخذ أحدٌ مني قبساً من نوري.. فكيف الحال مع من أخذ مني النور كله؟!! لا سبيل إلا الموت.. كنتُ أفضل لها الرحمة وقد وهبتها لفترةٍ سبيل النجاة ولكنها أبت إلا أن تُختتم حياتها ومسيرتها بالقتل!! وأيُّ قتل.. سأجعلها تندم على اللحظة التي تعرفت فيها على "ماجد" وأفسدت عليّ لحظاتي الجميلة معه!!

وكأني أراها الآن تشمت بي.. تفرح بانتصارها عليّ وتستأنس بسيطرتها على الوضع! وأنا لا أستطيع القيام بشيء، فقد غدوتُ مقيّدةً من كلّ الجهات، فمن جهةٍ يجب أن أريَ ماجد الجانب الإيجابيّ عندي، ومن جهةٍ أخرى يجب ألا تعلم خالتي بباطن تفكيري كي لا تشك بحركتي المقبلة التي ستخلصني منها عما قريب!!

توجهنا نحو غرفة الجلوس وكان التعب قد حلّ عليّ، وخالتي لا تزال في منزلي تتحدث من دون انقطاعٍ و"ماجدٌ" يُناقشها في الأوضاع السياسيّة واليوميّة والأحداث في "العراق" و"فلسطين"، لا أتذكر أنّ خالتي تفهم في السياسة ولكنها هذه المرة راحت تتكلم بطلاقةٍ وحماسةٍ وتتحدث عن شؤون المسلمين وكأنها تطبق أحكام الإسلام.. مع أنني لم أرها يوماً تصلي!!

نعم، كنتُ أرى زوجها يواظب على الصلاة مع أنه كثير العصبيّة وسريع الغضب والانفعال، لكنه كان يسارع إلى الصلاة في وقتها، فإما أن يذهب إلى المسجد أو يختفي من أمامنا لينعزل في غرفته ويقوم بالطقوس اللازمة!

لم أكن أحبه ولكنني لم أكرهه أبداً.. هل يجب عليّ أن أحبّ كلّ المؤمنين لمجرد أنهم يحبون الله؟!!

أنا أحبّ الله ولا أطلب من الناس أن يحبوني.. لا أحبّ مفهوم الفرض والإجبار، ولا أحبّ كلّ الناس، أحبّ فقط من اخترتُ أن أحبه لا من يتوجب عليّ حبه، اللهم إلا الأنبياء والأئمة من أوصانا الله في كتابه بمودتهم!!

هل صحيحٌ أنّ من يقول "لا إله إلا الله" يدخل الجنة؟! هل أنا بذلك في نجاة من النار؟! هل سيدخلني الله جهنم لأنني لم أظهر له حبي أم لأنني عاقبتُ بالقتل أناساً أحبوه؟!! وهل كانوا سيموتون لو لم يُقدر الله لهم ذلك؟!!

إنها مشيئة الله، فهل سيعاقبني الله على تطبيقي لمشيئته؟!!

وقف "ماجد" بهيبته اللافتة، مدّ يده يودع خالتي مبدياً إعجابه وسعادته بالتعرف إليها، ثمّ شكرني على هذه الدعوة وهمس في أذني بعض الكلمات فابتسمت.. وقف عند الباب ينظر إليّ مودعاً، أحسستُ أنه يريد أن يقول لي شيئاً ولكنه لم يتكلم..

وفجأةً، أقبلت زوجة أبي الثالثة تصرخ..

قالت: "لقد أفاق ولدي.. أفاق أخيراً..!!!"

****

أصبحتُ أؤمن بالقدر أكثر فأكثر.. وأؤمن أن لله في كلّ أمرٍ حكمة، ولكنني ما زلتُ حتى الآن لا أعرف الحكمة من بقاء أخي حياً!!

هل هو عدلُ الله الذي سيتحقق على يد أخي في صراع الخير والشر؟!! ومَن أنا؟!! هل دوري في هذا الصراع أن أمثل الشر..؟! والشر لا بدّ له أن يفنى، هل هذه هي نهايتي إذاً، الفناء.. هل سيقتلني أخي أم أنه اختار أن يعذبني كي يستطيع التلذذ بآلامي وعذاباتي؟!!

وهل هكذا يتمثل الخير؟! أهذا ما يرضاه الله.. وإن اختار الله أن يعذبني في الدنيا فهل سيرحمني في الآخرة؟!

ذُهل الجميع.. وزوجة أبي كانت في حالةٍ من الصدمة لا تعرف كيف تستيقظ منها، بدت وكأنها مأخوذةٌ بمشهدٍ مبهر حيث التعابير فيه لا تستطيع وصف الشعور، بقيتُ واقفةً في مكاني في حين توجهت خالتي إلى غرفة أخي.

أحسستُ أنّ "ماجداً" يرغب في البقاء كي يرى أخي ويعرف مستجدات الأمور ويطمئنّ عن حاله، ولكنني تصرفتُ أمامه بارتباكٍ وطلبتُ منه الانصراف ووعدته بأني سأتصل به بعد أن يأتيَ الطبيب ليطمئننا عن حاله.

انصرف ماجد، ولم أتصل بالطبيب فضلتُ أن أراه أنا قبل أيّ شيء، توجهت إلى غرفته أسير نحوها ببطء شديدٍ وترقب، فوجدتُ الجميع يحيطون به من كلّ الجهات.

كانت عيناه مفتوحتين وتعابيره جامدة.. رآني ولم يبدِ لي أيّة ردة فعلٍ، ذهبت والدته تكلم الطبيب وظلت عيناي متشابكتين بعينيه، ملامحي يبدو عليها الخوف والاضطراب، وملامحه يغلب عليها الجمود والسكون!!

اقتربتُ منه، أمسكتُ بيده فأبعدها عن يدي في ردة فعلٍ غريبة، بدا وكأنه يخاف مني كطفلٍ صغير يخاف من أوّل شخصٍ يقترب منه.. بقيتُ جالسةً قربه في حين حاولت والدته مكالمته ولكنه لم يكن يجيبها!! لم يكن يبتسم لها أبداً، بل كان ينظر إليها كامرأةٍ غريبةٍ في تلك الغرفة.

أقبل الطبيب فخرجنا جميعاً من الغرفة ننتظر في الخارج أيّ جديد، كنتُ أرتجف من الخوف في تلك اللحظات، إنها المرة الأولى التي يتعرض فيها مستقبلي للخطر، فإن أيّ كلمةٍ ستصدر منه قد تكون كارثةً كبرى لي!!

احترتُ في أمري ماذا سأفعل وكيف سأتصرف في حال أخبره أخي عن حقيقة ما جرى في ذلك اليوم عندما رميته من الشرفة!

رباه ماذا سأفعل الآن، أهذه هي نهايتي، أهكذا سينتهي أمري، وكيف سيكون موقفي أمام عائلتي ومجتمعي؟!!

لا يهمني أحد، لا يهمني سوى "ماجد"، ماذا سأقول له وكيف سيتقبل هذا الأمر؟! من المؤكد أنّ مشاعره تجاهي ستتغيّر!!

خرج الطبيب.. أحسستُ في هذه اللحظة أنه سيغمى عليّ، اقترب نحوي بشكلٍ غريب مع أنه كان من المفترض أن يكلم زوجة أبي.. طلب محادثتي على انفراد، فدخلتُ معه غرفة الجلوس في حين راح يطمئن الجميع أنّ كلّ شيء على ما يرام وأنّ أخي بخير.

بدأت قدماي ترتجفان، أحسّ الطبيب بقلقي فدعاني إلى الجلوس..

قال: "لقد فقد ذاكرته!"

ماذا؟! هل أنا أسمعه جيّداً؟! فقد ذاكرته؟! الحمد لله يا ربي لا زلتَ إلى جانبي، ولا زلت تدعمني.. أشكرك يا الله!

أخفيتُ فرحتي وسعادتي بهذا الخبر كي لا ألفت النظر إلى أمرٍ مريب!! رحتُ أعبر عن صدمتي وحزني وقد أتعبني تمثيل هذا الأمر في اللحظة التي يجب عليّ فيها أن أقفز فرحاً!!

أخبرني أنه سيبقى مقعداً لبقيّة عمره، ولكن ذاكرته قد تعود مع مرور الزمن وخاصةً إن تأمنت له الأجواء المناسبة والمحيط الدافئ والهادئ والسعيد!

جوٌّ دافئ!! سأحرص أنا بنفسي على تأمين هذا الجوّ وهذا المحيط له!! أخبرني أنّ الكسور القديمة قد جبرت وأنه بصحةٍ جيّدة الآن ولكنه لا يزال بحاجةٍ إلى بعض العناية والمراقبة والاهتمام!!

انصرف الطبيب وتركني أعبر عن سعادتي مع نفسي.. يا له من حظ!! ولكن ماذا سأفعل الآن؟! هل سأنتظره حتى يُشفى وتعود له الذاكرة فيفضح أمري؟! لا بدّ لي من أن أعيد تخطيط الأمور من جديد، فحالة أخي نادرةٌ من نوعها

إنها أطول عمليّة قتلٍ حدثت معي على الإطلاق، أتعبني كثيراً أمره وها قد آن الأوان أن أحقق مرادي وأتخلص منه حتى أرتاح وأدفن معه سري!!

خرجتُ من غرفة الجلوس أصطنع الدموع، ركضت نحوي زوجة أبي تسألني عن حالة ولدها، أخبرتها بكلّ شيءٍ مع بعض المبالغة في وصف الوضع.. ثمّ توجهتُ مسرعةً إلى غرفتي أحاول التفكير في الخطوات المقبلة، لا أدري ما الذي حصل معي، وكأنّ عقلي المخطط والمبدع توقفت أفكاره الخلاقة عن الضخّ!!

لديّ جمودٌ بل وتراجعٌ في القدرات التخطيطيّة التي كنتُ وبكلّ تواضعٍ أترأس أبعد إمكاناتها!! جلستُ على الأرض قرب السرير، قلتُ لعلني بذلك أستطيع التفكير أو التركيز بشكلٍ أفضل، ولكنّ طيف "ماجد" يلاحقني!!

منذ عرفته وأنا لم أعد كما كنت، غدوتُ أوهن وأضعف بل صرت أستصعب التنفس بعيداً عنه!!

هل الحبّ يقتل الفكر الشرير داخل كلّ من يحبّ بصدق؟!! هل هذه هي الحال معي الآن، هل أنا في صراعٍ بين حبي لماجد ورغبتي في قتل أخي والتخلص منه؟!!

لا.. إنه وهمٌ أحيط نفسي به، فوجود الحبّ في حياة المرء لا يمنعه من الإحساس بالمشاعر المضادة!! فالمرأة التي تحب أولادها تعرف جيّداً كيف تقتل كلّ من يحاول سلبهم منها.. وأنا كذلك، أحبّ "ماجد" ومستعدةٌ لقتل كلّ من يعترض طريقي معه!! وأخي غدا خطراً عليّ في هذه المرحلة، فهو يستطيع كشف حقيقتي في أيّة لحظةٍ وتدمير حياتي مع ماجد!!

لا، سوف لن يتحقق ذلك أبداً.. هل أغضب الله عندما أفكر بهذه الطريقة؟! وهل أنا واقعاً أغضب ربي من أجل أن أكسب مودة عبده؟!!

أنا أعرف أن الله حبب إلينا الخير، ولكنني أشعر دوماً أنّ عندي ميولاً أقوى ولا إراديّةً نحو الشر!! من صغري وهذا الإحساس يغلب عليّ، حتى قبل أن أعرف مفهوم الخير والشر وقبل أن أعي الفرق بينهما.

لم أتناول العشاء في ذلك اليوم، كان عقلي جائعاً ولكن لا يغذيه طعامٌ، ونفسي ظمآنةٌ لا يرويها شراب!!

ذهبتُ إلى غرفة أخي، رأيتُ والدته تكلمه بحرقةٍ وحزن، لا أنفي تأثري بهذا المشهد المعبر ولكن إن تركتُ إحساس الرأفة يتغلب عليّ عندئذٍ لن ينال من يستحق العقاب جزاءه!!

جلستُ قربه أكلمه وأضحك في ذاتي، كنتُ سعيدةً لرؤيته تائهاً ولمعرفتي أنّ باستطاعتي تسييره كيفما أشاء!!

رحتُ أفكر في أنه في هذه المرحلة لا يستطيع التفريق بين والدته وبيني، وبما أن والدته مشغولةٌ في البكاء عليه، أستطيع إذاً أن أستغلّ الوضع وأكسب حبه وثقته ليبقيني قربه حتى أفعل به ما أريد!!

خطةٌ لا بأس بها مع أنها ستأخذ من وقتي وتعبي وجهدي، وحتى من خلوتي بماجد ولحظاتي الخاصة معه!!

لا بدّ لي من أن أضحي كي أكسب في آخر الطريق وأنال مبتغاي..

بدأتُ أسايره في تلك الليلة، لم أتوقف عن الكلام، أحسستُ أني أكلم غبياً لا يدري من الدنيا شيئاً وحتى اسمه ضاع مع ذاكرة الماضي!!

ومن يهتم الآن بالإسم إن كان الجسد لا يستطيع التفاعل بعد اليوم، سيبقى أخي مقعداً إلى الأبد، هذا خبرٌ سارٌ يساعدني في تنفيذ مخطتي في القضاء عليه!!

هذه المرة يجب ألا أتمهل، فالوقتُ ليس في صالحي والبطء قد يقتلني قبل أن أبرئ نفسي من لسان أخي.. فالعجلة في هذه العملية تدخل في شروط إتقان العمل!

عدتُ إلى عرفتي من جديد ورميتُ بجسدي المثقل على السرير وغفوت لأوّل مرّةٍ من دون صراعٍ مع القلق!!

لقد كان نهاري طويلاً ومتعباً، ففي بدايته التقيتُ بماجد ومن ثمّ جاءت خالتي وبعدها أفاق أخي من غيبوبته!! ولكن يجب عليّ ألا أضع "ماجد" في الصف نفسه مع خالتي وأخي، فأنا لن أفكر أبداً في التخلص منه والابتعاد عنه!! أم أنني قد أفعل ذلك..؟! هل يعقل أنّ الرجل الذي قاتلتُ من أجل الحصول عليه، سأقاتل فيما بعد للتخلص منه؟!!

أتمنى ألا يحصل هذا معي، هل كنتُ أتكلم في بداية مشوار حياتي عن المعقدين.. ونسيتُ تصنيف نفسي أوّلهم؟!!

ومَن منا خالٍ من العقد، فمنا من يخفيها ومنا من لا يستطيع السيطرة عليها فيبديها من دون قصد، ومنا من يجاهر بها، ويبقى من لا يعلم بوجودها عنده في حين أنها تتلبسه بشكلٍ كبير.

أما أنا فأعرف أنني معقدة ولا أخجل من ذلك، بل إن عقدتي هي وحدها التي تستطيع إنقاذي عند الحاجة والعسر!! ولكنني رغم عقدي الكثيرة أحبّ الله وأحبّ أن أرضيه، ولكنّ نفسي لا تشبع ويجب ألا أتركها جائعة فالجوع يقتلني.. وأنا يجب ألا أموت!!!

إن متُّ قبل أن يغفر الله لي سوء عملي فكيف سأدخل الجنة؟! أعرف أنّ بدني ضعيف لا يتحمل عضة نملةٍ فكيف الحال بنار جهنم؟!!

رباه، أليس في مفهوم العقاب أنه السبيل الوحيد لتأديب النفس وإصلاح سلوك المرء وتحسين مساره.. فما الحكمة من العقاب في نار جهنم الخالدة إن لم يكن هناك حياةٌ بعدها؟!!

لم أذهب في ذلك اليوم لرؤية "ماجد" كما وعدته، اضطررتُ إلى إلغاء موعدي معه لأجل أمرٍ مهمٍ لمستقبلي، أخبرته أنني متعبة وأحتاج إلى الراحة، ولكنني كنتُ في قمة نشاطي وجهوزيتي للخروج.

غادرتُ منزلي وتوجهتُ إلى منزل خالتي.. التقطتُ أنفاسي جيداً قبل أن أطرق باب بيتها، ثمّ دخلت.

دخلتُ إلى الصالة فوجدتُ زوجها السابق جالساً ينظر إليّ، ثمّ وقف متأهباً وبادر بالسلام.. رددتُ عليه التحية وجلستُ مدهوشة.

لم أعرف ماذا أقول أو كيف أتصرف، ولكنني بعد مرور وقتٍ قليلٍ هممتُ بالوقوف من جديد، واستأذنتُ للانصراف.

تبعتني خالتي مستغربةً ردة فعلي ترتجيني البقاء ولكنني فضلتُ الذهاب كي تستطيع أن تنفرد مع زوجها السابق علهما يتصالحان من جديد!!

وأيُّ صلحٍ هذا؟!! يجب ألا يكون هناك تفاهمٌ أو تصالح، كم أنا حمقاء، لماذا أريد الذهاب، كان يجب عليّ أن أبقى كي أفسد لهما هذه اللحظة كما أفسدت لي خالتي لحظاتي الجميلة مع ماجد.

لا، لن أسمح لهما أن يعودا إلى بعضهما البعض، وقد جئتُ لأنهي أمرها فما الذي أتى به الآن إلى هنا وفي هذا التوقيت بالذات؟!!

طلبت مني أن أعود لزيارتها في أقرب وقتٍ ممكن، وقد وعدتها بذلك!!

طبعاً وعدتها.. مع أنني لا أفي بوعودي عادةً، ولكنّ هذا الوعد مختلفٌ عن غيره..

أليس وعد الحر دَيْناً؟!!

****

(6)

ما حاجة الرجل الذي تخلص من الهم وارتاح منه أن يعود إليه من جديد؟!! هل شعر زوج خالتي بالحنين.. ولكنني أعرف أنه تزوّج غيرها!!

أيعقل أنه طلّق من تلك المرأة وعاد نادماً يرتجي خالتي أن تعود إليه؟!! لربما أدرك أنّ العلة في عدم الإنجاب تكمن فيه لذلك قرر أن يعود إلى خالتي بعدما فشلت تجربته تلك!! وهي التي بدا وجهها مشرقاً وكأنها تنتظر هذه اللحظة من زمنٍ طويل!!

لماذا يستطيع الرجل أن يستغني بسهولةٍ عن زوجته في حين لا يستطيع أبداً أن يستغني عن أولاده أو يتبرأ منهم مع أنه لولاها لما حصل عليهم!!

عدتُ مكسورة الخاطر من منزل خالتي، لم أستطع التخلص منها وقد ازداد عبؤها عليّ خاصةً عندما علمتُ باحتمال عودتها إلى زوجها السابق!!

سعادتها تحزنني، الحمد لله أنها لا تشبه والدتي في شيء حتى لا أشعر بالأسى والأسف عليها.. وحتى في الشكل فوالدتي سمراء وخالتي تميل إلى البياض.

لم يمنحني القدر فرصة التعرف على والدتي وكذلك قد شاء القدر أن يحرم خالتي فرصة التعرف إلى أولادها لذلك حرمها من الإنجاب.. لطالما تمنت أن يرزقها الله أطفالاً، ولكن الله قد حرمها منهم، ربما كانت ستسيء تربيتهم أم أنه نوعٌ من عذابٍ دنيويٍ يخفف عنها بعضاً من عذاب الآخرة والعقاب!!

لقد حالفها الحظ هذه المرة.. أتمنى أن تكون وحدها في المرة المقبلة كي لا يهنأ زوج خالتي السابق بها وكي لا تهنأ هي الأخرى بالعودة إليه.

أنا لستُ شريرة، وأكره الشرّ كثيراً، ولكنه عندما يكون الوسيلة الوحيدة التي لا بدّ منها للدفاع عن النفس، يصبح الأمر عندي مباحاً بل ومحبباً أيضاً!!

ألا يصبح القتل مباحاً عندما يكون دفاعاً عن النفس في القانون والعرف وكذلك المنطق؟!! أنا لا أبرر تصرفاتي.. ولكنني أعلم أنّ في أعماقي وفي داخلي طيبةً ومحبةً كبيرة، فإنّ من يكره فعلاً، لا يترك الحقدُ في داخله مكاناً للحب والخير، ولكنني أحبّ "ماجد" وأتمنى له ولنفسي الخير والسعادة!!

ولكن هل أحبّ الخير لنفسي على حساب الشرّ لغيري؟!

عدتُ إلى المنزل أفكر، وعندما وصلت، رأيتُ "ماجد"!!

ماذا يفعل هنا؟! ما الذي أتى به وماذا سأقول له بعد أن أخبرته أنني مريضة ولن أستطيع الخروج.. ماذا تراه يقول عني الآن، هل سيعتبرني كاذبة، هل بدأ يكرهني، ماذا سأقول له؟!!

قال: "الحمد لله على سلامتك!"

عرفتُ أنه كان يهزأ بي، ولكن ذلك لم يمنعني من تمثيل دور المريضة والمتعبة، كنتُ أعلم أنّ لا أحد من أهل هذا البيت يعرف أين أذهب ومن أين أجيء لذا كنتُ مرتاحةً في ما أقول وأتصرف!!

أكمل: "أنا أنتظرك هنا من نصف ساعة كي أطمئنّ عليك!!"

كانت لهجته وطريقته في قول هذه الكلمات قاسيةً جداً عليّ، ولكنني لم أبدِ انزعاجي أو ارتيابي من فعله بل ابتسمتُ له ابتسامةً صغيرة ثمّ جلستُ..

قلت: "كنتُ أشتري دواءً".

تذكرتُ أنني من يومين اشتريتُ دواءً لصداع الرأس بعدما أتعبني التفكير في موضوع أخي وكيفيّة التخلص منه، وبحركةٍ ذكيّة، أخرجتُ الدواء من حقيبة يدي كي أعطي دليلاً حاسماً على صدق حديثي.. لقد حالفني الحظ من جديد، ففي اللحظة الأخيرة ينجيني الله من كلّ سوءٍ ويصلح وضعي مع ماجد!!

أحسستُ عليه ببعض الارتياح بعد أن صدّق ما قلته، لم أكن أحبّ أن تكون علاقتي مع "ماجد" مليئة بالكذب والخداع، ولكنني كنتُ أضطر في بعض الأحيان أن أخدعه في بعض الأمور فقط كي لا أخسره!!

قال: "أحببتُ أن آتي كي أطمئنّ عليك!"

كانت هذه المرة الأولى التي يتكلم فيها معي بلهفةٍ وقلق، كما كانت هذه اللحظة من أجمل اللحظات في حياتي.. لقد بدأ يهتم بي بشكلٍ لافت، وهذا ما كنتُ أنتظره وأسعى له منذ وقتٍ طويل!!

الآن وقد حصلتُ عليه ماذا تراني سأفعل به؟!!

المشكلة أنني لا زلتُ أحبه وأتمنى له الحياة.. وأن تكون حياته بجانبي، كيف استطاع هذا الرجل أن يسيطر عليّ ويستثني نفسه من كلّ المبادئ التي عشتُ عليها وأنهيتُ بها كلّ أموري!!

إنه فعلاً رجلٌ متميّز.. غدوتُ أسأل نفسي إن كنتُ أستحقه أم لا!! أنا التي ينتظر مني الرجال إشارةً أو ابتسامةً يحصلون من خلالها على السعادة الكبرى، أصبحتُ أنتظر من "ماجد" كلمة غزلٍ أو غيرةٍ أو اهتمامٍ كي يغدو نهاري جميلاً!

انصرف "ماجد" بعد أن وعدته أن أزوره بعد بضعة أيّام، ثمّ دخلتُ إلى غرفة أخي ورحتُ أكلمه.. لا يزال على حاله كما تركته، وهذا ما أريده مع أنه يتلقى عنايةً واهتماماً كبيرين إلا أنّه لا زال لا يتذكر شيئاً.

ساعدتني الممرضة على وضعه في كرسيّ جرار، ورحتُ أجره وأسير به في أرجاء البيت، أخبره عن كلّ زاويةٍ من زواياه وأحدثه عن ذكرياتي فيه.

كان منزلنا كبيراً جداً وجميلاً، ومع ذلك لم يعنِ لي شيئاً في طفولتي، فأنا أكره البيوت الكبيرة، لطالما أحببتُ الدفء والبيت الصغير لذلك كنتُ أعتبر غرفتي هي منزلي الخاص!!

كنتُ دائماً أستغرب كيف أنّ منزلي يحتوي على لوحاتٍ كبيرة ورائعة لأشهر الرسامين والفنانين المبدعين، وفيه صورٌ كثيرةٌ لأناسٍ غريبين، إلا صورة والدتي.. مع أنّ هذا المنزل هو منزلها، أهداها إياه والدي عندما تزوّجا، كنتُ كلما أحببتُ رؤيتها أدخل غرفتها وأفتح درجها الخاص وأنظر إلى صورها لأرى الابتسامة الجميلة ترتسم على فمها، فأحضن الصورة وكأنني أحضن ذكرياتي القليلة معها!!

الحمد لله أنها ماتت، لو لم تمت لكنتُ ربما كرهتها، أو أنني كنتُ سأؤذيها وأنا أعلم مكانة الأم ووجوب برّها، وأعرف أنّ الجنة تحت قدميها!! أتراها لو لم تمت لكانت خلصتني من عقدي وأحزاني أم أنني كنتُ سأكرهها وكانت ستزيدني عقداً وحقداً!!

كم أشتاق إليها عندما أبكي.. الحمد لله أنّ بكائي نادر، وإلا لكنتُ تعذبتُ أكثر في حياتي.

غدوتُ الآن مرشدة أخي في كلّ الأمور، كانت والدته تطعمه في معظم الأوقات، وكنتُ آخذ هذا الدور عنها من حينٍ لآخر، ولكنها كانت تراقبني في كلّ تحركاتي، لا أظنها تشك بي بل تحرص على سلامة ولدها بشكلٍ مبالغ!!

لو كنتُ مكانها لتمنيتُ له الموت، فكيف ستكون حياة شابٍ مشلولٍ وبلا ذاكرة؟!! لماذا يفكر الأهل دوماً بأنانيّة في هذه الأمور، أنا لا أحبّ أن يكون عندي أولاد مع أنني أعشق شعور الأمومة الذي كنتُ أحسد صديقاتي عليه بعد أن حالفهن الحظ في هذه الحياة فرضين بسجن المنزل على حرية العيش من دون هدف!!

أحببتُ أن أخرج أخي من هذا المنزل لأنه ورغم وسعته يبقى سجناً من أربع جدران يخنق مساحة الحرية المرتجاة عند المرء، ولكنني عرفتُ أنّ والدته ستمانع ذلك ففضلتُ عدم طرح الموضوع.

لا أدري كيف حصل ذلك ومتى.. ولكنني بدأتُ أحبّ أخي!! ربما شعور الحاجة الذي أراه على الدوام في عينيه كلما أخرجته من غرفته أو كلما كلمته كان سبب إحساسي بالحبّ والرأفة تجاهه، لقد أصبح كالطفل يقوم بكل ما آمره به ولا يتحرك من دون إذني ومشورتي!!

أخاف أن يتطوّر إحساس الحبّ عندي فأشعر بالرحمة تجاهه وأعدل عن قتله!! يجب عليّ أن أقتله، لا بدّ له أن يموت كي أبعد خطره عني وأرتاح منه وأنام بهناءٍ قريرة العين!!

مرّ أسبوعٌ من العمل المكثف والجهد المضاعق، فحالة أخي تحتاج إلى متابعةٍ وتركيزٍ ودراسةٍ وتخطيط.. كنتُ أعلم أنّ الوقت بدأ ينفد مني ولا بد لي من الإسراع!!

ذهبتُ في ذلك اليوم لزيارة "سمر"، فقد اتفقتُ معها أن نذهب سوياً إلى منزل "ماجد".. لا زالت على حالها ومعالم الحزن لا تفارقها، ماذا كان ليحصل لو

أنني تركتُ خطيبها "أحمد" على قيد الحياة؟!! ربما هي حكمةٌ من الله حيث جعله يموت عساها ترتاح منه ومن قريبته "أم يوسف"!!

كم مضى عليّ من الوقت لم أر فيه وجه المشعوذة والساحرة تلك.. لقد أراحني الله منها ومن سحرها وعبئها وكذلك ارتاحت "سمر" منهما!! فلتشكر ربها إذاً ولتكمل حياتها من دون دموعٍ أو حزن!!

دخلتُ للمرة الأولى إلى منزله، منزل "ماجد" الذي سيصبح عما قريبٍ منزلي!! كلّ شيءٍ فيه كان جميلاً.. لا أنكر أنه يفتقر إلى لمسةٍ نسائيّةٍ ترتب أركانه وزواياه، ولكنه نسبةً إلى رجلٍ وحيد يعيش فيه يعتبر منزلاً رائعاً!!

أظنه يحبّ البيت الدافئ مثلي.. أعترف أنني لم أتوقع أن أجد منزله على هذا النحو ولكنه رغم ذلك أعجبني وارتحت فيه كثيراً..

سألني: "هل أعجبك المنزل أم أنك تريدين أن تغيري شيئاً فيما بعد!!"

ماذا يقصد في كلامه، هل يعرض عليّ الزواج بهذه الطريقة؟!! أنا أعلم أنه لا يميل إلى الأسلوب المباشر في الكلام، ويعشق التمويه والألغاز، ولكنني لا أريد أن يذهب فكري بعيداً كي لا أعود خائبة أتحسر وأتندم!!

رباه، هل يعني فعلاً ما يقول، هل يسعى وبصدق إلى الزواج بي؟!!

ارتبكتُ كثيراً في تلك اللحظة ولأول مرة في حياتي، أعترف أنني خجلت وقد احمرت وجنتاي كمراهقةٍ شابة تخجل من أوّل شخصٍ يتغزل بها وبجمالها!!

ابتسمتُ له وفرحتُ كثيراً في أعماقي ولكنني لم أعلق على الموضوع، شعرتُ بشيءٍ غريب، بشعورٍ جديدٍ أشهده لأوّل مرة، لعلّه كان الشعور بالاطمئنان والأمان.. نعم، لقد شعرتُ بالاطمئنان، فوجودي مع "ماجد" يلهمني الراحة والاسترخاء ويبعد عني كلّ خوفٍ أو قلق!!

لم يقل لي شيئاً آخر ليوضح فكرته، اعتبر أنه لمح لي بما فيه الكفاية، كنتُ أعرف أنّ رجولته وعزّة نفسه لا تسمحان له أن يقول المزيد، وكان هذا يكفيني حتى أشعر بالسعادة والرضا!!

لم أكن أتصوّر أنّ شعور الحبّ دافئٌ إلى هذه الدرجة، لم أظن أنني سأبتسم ابتسامة البراءة من جديدٍ بعدما فقدتُ معنى البراءة من زمنٍ بعيد.

مرت ساعةٌ من دون أن أشعر، راح "ماجد" خلالها يقوم بواجبات الضيافة تساعده "سمر" بذلك، فيقدم لي الشاي ثم الحلوى والعصير وبعض الفاكهة.. أعتبرُ تصرفه هذا إنجازاً لرجلٍ يعيش وحده وقد عاش عمره مغترباً لا يحتاج إلى القيام بأصول الضيافة والترحيب!

كلّ شيءٍ فيه يجذبني إليه أكثر، ولا أظنني سأغيّر شيئاً فيه.. لكن أتراني سأفرح في بداية علاقتنا وبعدها سأملّ منه وأتركه؟!!

ما أعرفه هو أنني أكره الرتابة وأعشق التغيير وأحبّ السيطرة والتحكم، وأعرف أنّ الزواج سيحرمني من هذا كله، وإن قَبِلَ "ماجد" أن أتحكم به وبحياته عندها سأكرهه وأرميه كما فعلتُ مع من كانوا قبله!!

كم أنّ حياتي صعبة ومعقدة، أحلم أن أعيش حياةً طبيعيّةً وعاديّةً ليس فيها تأنيبٌ أو ندمٌ أو حسرة أو خوف!

أخاف الله كثيراً.. أخاف عندما أتذكر أنه يراقبني ويعلم خائنة عيني وما يخفي صدري، ويرى فعلي ويدرك نيّتي.. أخاف كلما فكرتُ بالنار، وأنّ الله سيحرقني فيها!! إن كان صحيحاً أنّ الكلّ مصيره الموت والزوال، فما الحاجة إلى التعب والنضال والمعاناة في هذه الحياة، هل كلّ ذلك من أجل الدخول إلى الجنة؟!!

أنا أحبّ الفوز بالجنة ولكنني أحبّ أكثر أن أكون بعيدةً عن النار.. فالخوف من العذاب يغلب على رغبتي بالجنة!!

تماماً مثل حبي لله الذي يغلب على خوفي منه.. فلو كنتُ أخافه أو أخشاه فعلاً لما قمتُ بما قمتُ به!! لكنتُ عرفتُ كيف أنال رضاه وآمن من سخطه عليّ وغضبه مني!!

ما دام حبي لك يا ربي لن يوصلني إلى جنتك، ولن ينجيني من عذابك.. فعلمني أن أخافك!! أرجوك أن تعلمني!!

****

كان نهاراً مميزاً ومن أجمل الأيام عندي.. تذكرتُ عندما كنتُ في العاشرة من عمري، انتخبتُ أجمل فتاةٍ في مدرستي ووضعوا لي تاجاً على رأسي ورحتُ أسير بعجبٍ أمام زميلاتي ثمّ أمرّ على زملائي فأتمايل أمامهم بدلعٍ لأزيدهم انبهاراً بي.

هذا ما أشعر به الآن، أشعر أنني كملكة على مسرح الحبّ والهوى وملك أحلامها يرافقها!!

تأخر الوقت، كان يجب عليّ الاستئذان للعودة إلى المنزل.. أمسكتُ بحقيبة يدي أهمّ بالذهاب ولكنني سمعتُ فجأةً صوتاً ينادي "أبي"!!

أحسستُ وكأنّ نبضات قلبي التي كانت تعزف ألحان العشق على أوتار الحب قد توقفت عن الخفقان.. رأيتُ ابنه يقترب منه ويحضنه بقوّة، ثمّ أقبلت تلك المرأة، زوجته السابقة، نحوه وقبلته على خده ثمّ نظرت إليّ وابتسمت ابتسامتها المريبة تلك، سلمت على "سمر" ولم توجه أيّة كلمةٍ لي!!

كانت متأنقة جداً، وكأنها تسعى إلى شيءٍ خلف هذه الزيارة التي يجب أن تكون "عادية"، نظرتُ إلى يدها فرأيتُ مفتاح المنزل.. تستطيع إذاً الدخول والخروج متى شاءت!!

بدأ الغضب يتسلل إلى داخلي بشكلٍ سريع، أحسستُ أنّ أناملي ترتعش وكأنها ستنقضّ عليها وتصرعها! لم أتمالك نفسي فوقفتُ منتفضة واستأذنتُ للانصراف، ولكنّ "ماجداً" استوقفني وأمسك بيد ولده وعرفني إليه..

يشبهه كثيراً في كلّ شيء، في الشكل واللباقة والتهذيب.. أحببته كما أحببتُ والده، ولكنّ تلك المرأة لا تطاق!!

قالت: "يبدو أننا أتينا في وقتٍ غير مناسب!"

لم ألتفت إليها ولم أعرها أيّ اهتمام، أكملتُ طريقي نحو الباب يتبعني "ماجد" فودعته ثمّ انصرفت.. نسيتُ أن أودع "سمر" أو أن أرجعها إلى منزلها، فقد كنتُ أشتعل غضباً وغيظاً ولم أرَ أمامي أحداً آخر غير الحقد!!

وصلتُ إلى غرفتي منهمكة.. أحسستُ بحرارةٍ قويّةٍ في جسدي، كنتُ أرتجف وأتمتم كلماتٍ غريبة.. كان كلّ شيءٍ جميلاً حتى أقبلت تلك المرأة وأفسدت كلّ شيء، لا يمكنني أن أتحملها، إنها ولا شكّ تسعى إلى إفساد علاقتي بماجد، تريد أن تسترجعه هذا واضح فهي تلاحقه على الدوام بحجة ولدها!!

كم أنها خبيثة.. هل سأسمح لها أن تعيش حياتها وتهنأ فيها على حساب راحتي وأعصابي وهناء بالي؟!! لا بدّ لها أن تموت هي وولدها!!

هل سأقتل ابنها؟!! هل يمكنني القيام بذلك.. وما ذنبُ الأطفال ليدفعوا ثمن فساد أهلهم!! ثمّ إنه ابن "ماجد" وليس ولدها وحدها.. هو قطعةٌ منه وأنا لا أريد أن أؤذي أيّ شيءٍ يتعلق به!! ولكنّ حياته تشكل خطراً على سعادتي.. رباه ماذا أفعل، أرشدني!!

بقيتُ مستيقظةً الليل بطوله أفكر، إنّ مخططاتي كثيرةٌ في الآونة الأخيرة، فلا بدّ لي من أن أنهي أمر أخي من جهة، ومن جهةٍ أخرى هناك خالتي التي سوف لن أرتاح حتى أتخلص من وجودها.. والآن هذه المرأة الوقحة التي تحاول أن تسرق مني ما خسرته هي من قبل!!

الآن يجب عليّ أن أضاعف جهودي.. يجب أن أقوم بعملي بتقنيّةٍ ودقةٍ وسرعةٍ من دون أيّ خطأ، فهذه المرحلة لا تحتمل أخطاء أو أيّ تقصير، أصبحت رجفة يديّ قويّة جداً، ما عدتُ أطيق احتمالها، لا بدّ لي من أن أشبعها كي يتوقف ارتجافها، لا بدأ أن أحقق رغبتها وأريحها!!

أقبل يومٌ جديد، كنتُ قد غفوتُ قليلاً عند الفجر ولكنني سرعان ما استيقظتُ على اتصال "ماجد".. احترتُ في البداية، هل أجيبه أم أتركه ينزعج ويغتاظ؟!! ولكنني كنتُ بحاجةٍ إلى أن أسمع صوته كما اعتدتُ أن أفعل كلّ صباح.. أجبته، بدأ يكلمني بشكلٍ عاديّ وكأنّ شيئاً لم يحدث!!

كانت هذه أكثر مرةٍ يحدثني فيها عن ولده، ربما لأنني رأيته، أو لأنه يحبّ أن يقول كلّ شيءٍ في أوانه، وقد حان الوقت ليحدثني فيه عن ابنه وعن حبه له واهتمامه به.. لا مانع عندي من أن يحبه، ولكنني أرفض أن يسرقه ولده مني فيحرمني بذلك من قضاء وقتي معه وحدنا من دون وجوده أو ذكره!! كلّ ما أتمناه أن أبقى العمر كله مع ماجد وأخشى أن أضطر إلى إنهاء حياة ابنه كي أحقق هذه الأمنية!!

طال حديثنا لساعةٍ كاملة، أردتُ أن أقفل الخط كي أذهب وأطمئنّ عن حال أخي ولكن "ماجد" استوقفني بسؤاله..

قال: "متى ستتحجبين؟!!"

أتحجب؟!! هل قلتُ يوماً أنني أريد أن أتحجب؟! وهل هذا واردٌ من الأصل؟!! هذه المرة الأولى التي يطلب فيها "ماجد" مني بشكلٍ مباشر أن أتحجب.. كنتُ أعلم أنه ملتزمٌ جداً ويحبّ المرأة المتحجبة ولكن لم يخطر لي يوماً أنه سيطلب مني ذلك!!

أنا أتحجب وأخفي جمالي وشعري الذي كان عندما يتطاير في الهواء يفتح أفواه الكثيرين!!

هل أخفي مفاتني التي كانت وسيلتي الأقوى للحصول على ما أريد؟!! هذا أصعب طلبٍ على الإطلاق.. هل يستحق "ماجد" هذا العناء، ألأجله أتخلى عن أجمل ما عندي؟!!

ولكن هذا الأمر لا يجب أن يكون من أجله، بل هو لله، من أجل أن أنال مرضاته، ألم يكن هدفي وحلمي أن أدخل الجنة؟! والحجاب هو طريق بدايةٍ لدخول الجنة!!

لم أقل له شيئاً ولم أعده بشيء، بل بقيتُ صامتةً من دون أن أجيبه أو أعلق على سؤاله!! أعرف أنه لم يرد مني أن أعطيه جواباً، بل كان يريد أن يلفت نظري إلى مستقبلي معه.. رباه لا أدري ماذا أفعل؟! هل أرضيه وأرضي ربي أم أنني سأرضي غروري وكبريائي؟!

أنهيتُ المكالمة وذهبتُ إلى غرفة أخي، كانت أفكاري مشوشة ولكنني حاولتُ قدر الإمكان التركيز كي لا أدمر العلاقة التي بنيتها مع أخي وحتى لا أفقد ثقته بي وحبه لي!!

كانت والدته بقربه، والممرضة ما عادت تأتي بناءً على طلب الطبيب، ولكن كيف لي أن أتخلص الآن من والدته؟!! أنا أعرف أنها عصر كلّ نهار سبتٍ تذهب لزيارة قبر والدي وتقرأ الفاتحة عنده.. ليس أمامي حلٌ آخر، سأنتظر حتى يأتي يوم السبت كي أحقق أخيراً ما سعيتُ إليه طويلاً عساني أرتاح!!

لم أفكر يوماً في زيارة قبر والدي بعد وفاته!! ولماذا أزوره؟! لا أتذكر أبداً أنه زار جدي، مع أنني عندما كنتُ صغيرة سمعته يَعِدُ والده أنه سوف لن ينساه أبداً وسيزوره دوماً وسيتذكره طالما بقي على قيد الحياة.. ولكنه بعد وفاة جدي بأسبوعٍ جفت دموعه وعاد كلّ شيءٍ إلى ما كان عليه وكأنّ شيئاً لم يحصل!!

نعم، هذا ما علمني إياه والدي، فكما فعل مع والده أقوم بالمثل معه، هذه هي إرادة الحياة التي لا قدرة للمرء على تغييرها.. لا أتذكر شيئاً إيجابياً حصل

بيني وبين والدي، أتذكر فقط أنه يحبني ولكنه أبعد ما يكون عن تطبيق هذا المفهوم!!

هل ذكرتُ قبلاً أنه كان يضربني؟! نعم، عندما كنتُ صغيرة، كان والدي يأتي من عمله متعباً، وكان في بعض الأحيان يضربني كلما اقتربتُ منه لأكلمه!! كيف لي أن أحبّ رجلاً مماثلاً؟!! كيف لي أن أتقبل شخصاً لم يرحم ضعف بدني في صغري ورقة مشاعري ولم يساعدني عند حاجتي إليه رغم علمه بيتمي وفقداني لوالدتي التي كان يجب أن تكون أنيستي وصديقتي ورفيقتي خلال مسيرتي في الحياة.

لا تعني لي كلمة أبٍ شيئاً، أظنّ أنّ الأبوّة أمرٌ ثانويّ بل وهامشيّ في حياة الإنسان، وربما أوجب الله بره كي لا يتمرد ويتملص عن واجباته تجاه أولاده وبيته!!

حضرتُ عدتي وهيأتُ نفسي ثمّ أخذتُ نفساً عميقاً وذهبتُ إلى منزل خالتي بعد أن وعدتها بزيارتها.. كان لا بدّ لي أن أفي بوعدي حتى أنتهي من ثقل وعبء هذا الموضوع عليّ.

كانت وحدها هذه المرة، وقد بدت سعيدةً جداً.. استقبلتني بكثيرٍ من الترحاب والحبّ والاندفاع وقد بادلتها الحماسة نفسها.

جلسنا نتحدث، أردتُ أن أسمعها تتكلم حتى أتذكر كلماتها الأخيرة بعد موتها، أخبرتني عن سعادتها الكبيرة بعد أن طلب طليقها العودة إليها، كرهتُ رؤيتها سعيدة وانزعجتُ كثيراً من هذا المشهد.. ابتسامتها كانت تضايقني وتزعجني، فاضطررتُ إلى تعجيل موتها كي لا أتضايق أكثر!!

قدمت لي كوباً من الشاي فادعيتُ أنه قليل السكر كي تذهب وأختليَ بكوبها وأقوم بما تمليه عليّ رغبتي!!

عادت خالتي والبسمة تملأ وجهها والبراءة التي لم أعهدها عندها ظاهرةٌ في عينيها.. راحت تشرب الشاي بطمأنينةٍ وسلام.. أنا لا أكرهها إلى درجة

الرغبة في رؤيتها عندما تموت بل أكرهها إلى درجة أن أقتلها ولكن بعيداً عني.. لذا ادعيتُ فجأةً أنّ عندي موعداً هاماً كنتُ قد نسيته وانصرفتُ عنها مسرعة!!

كانت رجفة يديّ لا تزال تربكني وتصعّب عليّ الحركة، لم أستطع أن أقود السيارة براحةٍ وأمان، كنتُ مضطربةً وخائفة!! الحمد لله.. تخلصتُ منها أخيراً.. خالتي العزيزة، يرحمها الله، كانت كريمة النفس وطيبة القلب!! هذا ما يقوله الجميع عنها.. يا ليتني رأيتُ هذه الصفات عندها ولكن مشكلتي هي أنني لا أؤمن أنّ صفاتٍ مماثلة من الممكن أن تتواجد عند أيّ شخصٍ لأنّ الإنسان بطبعه وتكوينه يميل إلى تحقيق رغباته مهما تطلب منه هذا الأمر من استغناءٍ عن مبادئ وأخلاقيات كان قد اكتسبها سابقاً!!

أقبلت أيّام العزاء والحزن، رحلت خالتي عن هذه الدنيا وتركت خلفها فجوةً كبيرةً في قلبي.. لقد تأثرتُ كثيراً لرحيلها، كانت عزيزةً عليّ، كنتُ أعتبرها كوالدتي المرحومة!!

لا.. لا أحد مثل والدتي، لا تشبه أمي، وإن كانت تشبهها فالحمد لله أنها ماتت قبل أن أراها وأعرفها!!

يا ربي، لماذا كلّ هذا الكم من الحقد والكراهية داخلي؟!! لماذا أكره كلّ من حولي ولا أتقبل وجودهم؟!!

جاء "ماجد" لزيارتي وتعزيتي، أحسستُ أنّ حنانه عليّ ازداد كثيراً خاصةً بعد تكاثر الأحداث المحزنة في حياتي.

لم تأتِ "سمر"، لا أعرف لماذا مع أنها كانت دائماً السباقة لمواساتي في فتراتٍ كهذه، ربما لا تزال حزينة في قوقعتها المظلمة تلك، ولكنها تغيرت كثيراً نحوي في الفترة الأخيرة، لا أدري ماذا أصابها أصبحت فجأة جافةً تجاهي ولا تطيق لي كلمة!

هل تشكّ بي وبأني قتلتُ خطيبها؟! هل عرفت شيئاً عن علاقتي السابقة به؟!! إن كان كذلك فهي الآن تشكل خطراً كبيراً عليّ!!

رباه.. بماذا أفكر الآن؟!! لا.. سوف لن أؤذي "سمر"، إنها صديقة طفولتي وهي غاليةٌ جداً على قلبي، لعلّ تصرفها هذا هو نتيجة تلك الصدمة التي لم تستطع الخروج منها.. صدمة خسارتها "أحمد"، حبيبها وفارس أحلامها!!

كم أنني سأتعذب في النار وأحترق بها نتيجة ما فعلتُ بسمر، لقد غدت حياتها كآبة بعد أن قتلتُ "أحمد"، ولكنّ أحمد لم يكن يوماً فلطالما أحبني ولم يفكر يوماً بغيري!!

لمَ لا تفكر في أنها ارتاحت منه وقد خلصتها من عبءٍ ثقيلٍ كان سيتعبها ويحزنها فيما بعد.. لكني إن شاء الله بعد أن أتزوج ماجداً سوف أسعى لأزوجها بشابٍ مميّزٍ أرتضيه و"ماجداً" لها!

لو لم يكن "ماجد" في حياتي لما كنتُ سأتحمل بُعدَ "سمر" عني وجفاءها نحوي.. كنتُ سأشعر بضيقٍ شديدٍ وسأضطر للقيام بما لا أقتنع به!!

من قال إني لا أحبّ القيام بهذا العمل، بل على العكس أصبح هذا الأمر كالدم يسري في عروقي ومن دونه أموت.. وأنا لا أريد أن أموت لأنني إن متُّ فسأدخل النار وأنا لا أريد دخول النار فساعدني يا ربي.. آمني من النار وعذاب القبر ونجني بحمدك!!

لم يطل بكائي على خالتي، ولم أتعب كثيراً في التمثيل فقد مضى الوقتُ سريعاً ولم أكن أتذكر خالتي أو أزورها إلا قليلاً.. تأثر زوجها كثيراً لرحيلها، لم يتقبل موتها بسهولة، إن كانت عزيزةً عليه لهذه الدرجة فلمَ طلقها إذاً وتخلى عنها؟! أم أنّ المرء لا يعرف قيمة ما يملكه إلا عندما يخسره؟!!

أنا أعرف قيمة "ماجد" ولا أريد أن أخسره، بل أنا مستعدة لأن أخسر كلّ شيء من أجله.. نعم، فماجد يستحق كلّ هذا التعب والجهد، إنه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يدخلني الجنة فلن أفرط فيه إذاً!!

****

أصبحت خالتي الآن من المنسيين، وضعتها في ذاكرة الماضي ورحتُ أبحث لنفسي عن ذاكرة الغد!

مرّ أسبوعٌ جديد، أخرجني خلاله "ماجد" من جوّ البيت الكئيب ورحنا نتجوّل في المدينة ونتنزه ونمرح ونرفه عن أنفسنا.. أسبوع عشتُ خلاله السعادة الحقيقيّة التي كنتُ أبحث عنها من زمنٍ بعيد.

لقد بدأ الوقتُ ينفد مني، لكني لا أستطيع أن أسابق الأحداث وأخترق الوقت كي أحقق مآربي، لا بدّ أن أسابق الزمن من دون مسايرةٍ كي لا يسبقني!!

كنتُ أكتشف كلّ يومٍ صفاتٍ جديدة في "ماجد"، وأعرف أنّ فيه من الكسل الكثير، فهو رغم حبه للحركة يعشق الراحة والنوم والتفكر، أظنه لا يمانع أن يبقى العمر كله على هذه الحال.. لديه أمورٌ كثيرة وعاداتٌ أكثر يجب أن أغيّرها فيه، ولكن في المقابل أنا أعتمد عليه كي أخرج من قوقعة الهمّ والحقد والعقد التي أعيش فيها ويمسك بيدي ليدخلني إلى حيث أحلم أن أدخل!!

دعوته في ذلك النهار إلى العشاء وجعلتُ أخي يشاركنا الجلسة.. لم يزعجني وجوده معي في تلك الليلة لأنّه الآن لم يعد أخي الرجل المحتال والقوي بل هو أضعف مما يمكن تصوره.. لا يعرف ماذا يفعل ومن نكون نحن، فقد ذاكرته ومعلوماته، لذا فإنّ جلوسه معنا سيكون هامشيّاً إلى أبعد حدود!!

إلتفت إليه "ماجد" أثناء الطعام وتنهد أسفاً على حاله والوضع الذي آلَ إليه، ولكنه سرعان ما أخذ يحدثني عن الحياة والمستقبل.. والعبادة!!

العبادة؟! مفهومٌ بعيدٌ عني وعن حياتي، هل سيجبرني به بعد الزواج، هل سأصلي خمس مرات كلّ يوم؟! هذا أمرٌ صعبٌ، لا أدري إن كنتُ أستطيع الصمود على تلك الحال، ولكن "ماجد" سيساعدني على ذلك، والحبّ كفيلٌ أن يغيّر المستحيل ليصيّره في دائرة الإمكان.

إنه نهار السبت، وأخيراً سأختلي بأخي وأنتهي من أمره كي أرتاح وأنتهي من هاجسه ومن الحقيقة التي يعرفها ويمكنه من خلالها أن يفضحني!! جاءت زوجة أبي تكلمني بلهفة وتطلب مني الاعتناء بولدها ومراقبته إلى أن تعود من زيارتها لقبر والدي.

لا أعرف لماذا تزور قبره مع أنني كنتُ دائماً أشكّ بحبها له، فهي لم تتفق معه يوماً وكانا دائماً على خلاف، وهذا ما كان يُفرح زوجة أبي الثانية، ولكن أبي كان يهتم بها لأنها حققت له رغبةً لطالما تمناها وهي أنها أنجبت له صبياً!!

أين أنتَ الآن يا أبي لترى ولدك الذي تفتخر به وتحبه فاقداً للذاكرة ومقعداً لا يستطيع القيام بشيءٍ من دون توجيه!!

أعطتني بعضاً من توصياتها ثم انصرفت.. انتظرتُ لبعض الوقت ثمّ دخلتُ غرفة أخي، كان لا يزال نائماً، حاولتُ أن أوقظه ولكنني لم أستطع فقررتُ عندها أن أذهب لأحضر له الطعام على طريقتي الخاصة مع وصفتي السحريّة لعله في هذا الوقت يستيقظ.

كنتُ أقوم بتحضير الطعام وارتجافة يدي تزداد شيئاً فشيئاً، كان عليّ الإسراع لأنّ زوجة أبي لن تطيل البقاء عند قبر والدي بل ستعود بسرعةٍ ولهفةٍ كي ترى والدها وتبقى قربه.

دخلتُ إليه أحمل الطعام وقد أشرق وجهي عند رؤيته مستيقظاً وكأنه ينتظرني لا يعلم أنه كان ينتظر قدره، وضعتُ الطعام جانباً ثم جلستُ قربه أكلمه وأسايره، كنتُ أودعه لآخر مرةٍ عبر كلماتي، أخبرته عن معاناتي السابقة كلما حاولتُ قتله والتخلص منه، كان ينظر إليّ ولا يفهم ما أقول ونظراته تزداد براءةً كلما اقترب من الموت.. راح يشير إلى الطعام، ابتسمتُ بعد أن تأكدتُ أنّ نهايته أصبحت حتميّة وكذلك مسددة من السماء.

حملتُ الطعام ورحتُ أسير نحوه بخطواتٍ بطيئةٍ وحركةٍ مرتجفة، كانت عيناي تتشابكان بعينيه، تذكرتُ في تلك اللحظة كلّ الأمور التي حصلت بيني وبينه ولا أنكر أنني تأثرت..

سأشتاق إليه، نعم.. أظنني سأشتاق إليه كثيراً وإلى الجلوس قربه والضحك عليه وعلى حاله وضعفه ومرضه..

هذه نهايته، النهاية التي أنتظرها منذ عرفتُ أنّ لي أخاً ينافسني في هذا الوجود، منذ عرفتُ أنّ أغلب الأهالي يفضلون الحصول على صبيٍّ لا على فتاة.. علماً أنّ حنان الفتاة لأهلها لا يستطيع أن يقدمه ولدٌ أبداً!!

لطالما اعتبرتُ أن العرف مفهومٌ معقدٌ يُصدرُ أحكاماً جائرةً على كلّ من يدخل ضمن سيطرته.. يعتبرون أنّ الفتاة تشكل ثقلاً وهماً على أهلها في حين أنّ الصبيّ يحمل اسم العائلة ويستقلّ عن أهله فلا يحملهم أيّة أعباءٍ أوتكاليف.. لا يلتفتون إلى أبعاد هذه الأمور، فالمرء آنيٌّ في تفكيره وأعماله، لا يعرفون أنّ هذه الفتاة والإبنة التي أحزنتهم ولادتها ستكون السبب في كلّ ابتسامةٍ ترتسم على شفاههم فيما بعد.. فوحدها الفتاة تذكر أهلها وتحنّ إليهم وتعشق حضنهم ودفئهم حتى لو عشقت زوجها وارتاحت معه!

يا ليت العالم يفهم حقيقة الأمور ويدرك أبعادها ويطبق الإسلام كما هو من دون تحريفٍ لما كان الجهل ليعمّ هذه البلاد ولأصبحنا الآن في موقعٍ رفيعٍ ومتقدمٍ يسعى فيه العالم كله إلينا بدل أن نركض مذلولين وراءه نستنجد منه العون لنأخذ فتات ما رموه عند أعتاب منازلهم!

ها هي نهاية أخي قد حانت، والطبق بين يديّ يرتجف مع رجفتهما، ولما اقتربتُ منه جاءني الصوت من خلفي يصرخ : "أين كنتِ؟!!".

الأطباق تكسرت والطعام انسكب على الأرض.. ماذا تفعل "سمر" هنا، ما الذي جاء بها الآن وفي هذا الوقت؟!! لطالما كان توقيت هذه الفتاة سيّئاً، لقد أرعبتني بقدومها فاضطربتُ وأوقعتُ الطبق وذهب جهدي وتعبي هباءً!!

هل تذكرت الآن أن تعزيني؟! بدأت تعتذر مني على طريقة دخولها إلى الغرفة ولكنها كانت قد قرعت الباب لوقتٍ طويلٍ حتى فتحته لها الخادمة أخيراً فدخلت إليّ تعاتبني من دون أن تقصد إخافتي!

يا إلهي، لقد بدأ وجودها يزعجني فقد أصبحت تعرقل طريقي وأنا لا أحتمل مقاطعةً كهذه.. ويجب أن يكون جزاؤها كما حصل مع غيرها! أليس هذا هو العدل يا ربي.. أليس هذا ما تأمرنا به وعلمتنا إياه، أن نكون عادلين في حكمنا ومعاملتنا للناس؟!! يجب عليها أن تتلقى الجزاء الذي تلقاه غيرها.. رباه إلى أين ذهب تفكيري، ما الذي يحصل معي؟! ولماذا كلما حاولتُ التخلص من أخي يحصل معي شيءٌ يعرقل خطوتي وعملي، هل يحميه الله وينجيه من الموت الذي اخترته له؟!! وهل لي أن أختار أمام قضاء الله وقدره؟!!

ها قد نجا من بين يديّ من جديد، لا أدري إن كان هذا حظاً موفقاً أم تسديداً إلهيّاً، ولكنه في الحالتين لا زال يتنفّس على حساب ضيق صدري!!

دخلت معي "سم"ر إلى المطبخ كي أسكب لأخي طبقاً آخر، ثمّ راحت تكلمني وتعزيني وتعتذر مني على تقصيرها معي وبدا عليها وكأنها تخطت أزمة "أحمد" وتريد أن تعود إلى حياتها القديمة من جديد، إلى فترات الضحك والابتسامة والبراءة!!

وهل تظنني متفرغة لها؟! لم أعد كما كنتُ في السابق، تغيّرتُ كثيراً وقد تغيّرت شخصيّتي أيضاً ولم أعد أهتمّ بشيءٍ إلا بماجد!!

ولكنه عمها، وهي ابنة أخيه.. يحبها وأنا كذلك أحبها، لذا سأتحملها وأستغلها وأجعلها حليفتي وسندي في الأمور الملحة والعالقة!!

هذا هو أكثر ما أحبه في الحياة، الاستغلال.. أحبّ أن أستغلّ كلّ من حولي وأجعلهم خاضعين لي وتحت إرادتي وسيطرتي، عندها يغمرني شعور التملك!!

جلستُ مع "سمر" نتحدث ونتناقش، راحت تكلمني عن "ماجد" بعد أن أغدقتُ عليها بأسئلتي حوله وحول زوجته وابنه.. كان يجب أن أعرف المزيد من المعلومات عن محيطه السابق لأفهم أسباب الطلاق وعمق المشاكل التي أدت إلى هذا القرار رغم وجود ولدٍ يربطهما ببعضٍ إلى الأبد!!

استمرّ حديثنا طويلاً، عادت زوجة أبي فتأكدتُ أكثر أنّ مساعيّ وخططي باءت بالفشل من جديد، استسلمتُ لقضاء الله في هذا اليوم ولكنّ عزمي ازداد أكثر على التخلص منه والإسراع في ذلك قبل أن يستعيد ذاكرته فأخسر بذلك حياتي ومستقبلي!!

غادرت "سمر" المنزل، كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بشعورٍ سلبيٍّ تجاه صديقتي "سمر".. انزعجتُ منها كثيراً ولكن لولا الصداقة القويّة والمحبة السابقة ولولا قرابتها بماجد وخسارتها لأحمد بسببي لكان لي تصرفٌ آخر معها!!

أصبح منزل والدي يُشعرني بالملل والرتابة، لا أجد فيه حيويّةً أو حركة، ربما لكبره أو لأنّ أخوتي من زوجات أبي قليلو الحركة رغم أنهم في سنّ الطيش والحركة!!

كنتُ جالسةً في غرفتي عندما خطرت ببالي فكرةٌ غريبة ومخيفة، ليست مخيفةً فعلاً بقدر ما هي مضحكة ومسلية!! نعم، هذا ما أحتاج إليه، أحتاج إلى مشهدٍ يضحكني، إلى بعض التسلية والحركة والهزء مع بعض التلاعب بالأحداث والتحكم بالآخرين وبتفكيرهم!

قررتُ أن أشعل فتيلاً بين زوجات أبي، لم يكنّ يجتمعن كثيراً أو يتحدثن، كانت كلّ واحدةٍ منهن منشغلةٌ بأولادها وتتجنب أيّ احتكاكٍ مع غيرها.. كانت المرة الأولى التي يجتمعن فيها في بيتٍ واحد، ولكنه بيتٌ مغرٍ وجميل وكبيرٌ جداً يستطيع احتضان عائلة كبيرةٍ كعائلتنا!

ما الذي يثير غيظ النساء غير النميمة والغيبة؟! إنها الوسيلةٌ الوحيدة لأراهنّ في حالةٍ من الاضطراب والغضب وفي عراكٍ مستمر، عندها أستطيع أن أشهد عروضاً مضحكةً ومسلية وأنتهي من مللي ووحدتي والحزن الذي يحيط بي بعد فشلي من التخلص من أخي!!

كم أنّ مثل هذه الأمور تحدث بسرعةٍ غريبة، لم أحتج إلى الكثير من الجهد والعناء كي أشعل النار والحقد والكراهية بينهن.. فالمرأة قابلةٌ وبسهولةٍ لأن تكره منافستها المرأة لمجرد كونها من الجنس نفسه، فكيف الحال إن كانت تشاركها زوجها؟!!

بدأ العرض على مسرح منزل والدي، ورحتُ أنظر إليهن يتبادلن تلك النظرات الحاقدة والمغتاظة من دون أن توجه إحداهنّ أيّة كلمةٍ للأخرى.

هكذا بدأ الأمر، رحتُ أتلذذ بتطوّر الأحداث خاصةً عند ردة فعل كلٍّ منهنّ على أيّ حركةٍ تقوم بها الأخرى.

وفجأةً، بدأت الأمور تتدهور بينهنّ وبدأت حدّة الجدال ترتفع، والأصوات تعلو في البيت حتى جاء دوري الأهم في هذا العرض وهو دورٌ غالباً ما يقوم به الحضور عند المشاهد الهزليّة والمضحكة، وهو القهقهة!! كان لا بدّ لي من أن أقوم بهذا الدور بشكلٍ باطنيٍّ من دون أن يراني أحد.. اضطررتُ إلى أن أقمع ضحكي وأن أبديَ حزني على كلّ ما يجري من حولي، كنتُ أعرف أنّ الضحكات هي فتراتٌ قصيرةٌ لتجفيف الدموع، ازداد الوضع سوءاً إلى حدٍ لم أستطع فيه السيطرة عليه، فقد قررت زوجة أبي الثانية ترك المنزل، ووضبت أغراضها وثياب بناتها ثم عادت إلى منزلها القديم.

لم أعتبر هذا الأمر سلبيّاً، فرغم أنه لم يكن ضمن مخططاتي إلا أنه زاد الأحداث حركةً وحيويّة، وأراحني من عضوٍ غير مرغوبٍ فيه في منزل والدتي الحبيبة الذي لا زلتُ أسعى أن أنظفه من أوساخ النساء اللاتي عرفهنّ والدي!! وأمّا زوجة أبي الثالثة فكان وضعها صعباً جداً، فولدها مريضٌ وكنتُ مضطرةً أن أرأف لحالها خاصةً وأنني أنوي أن أثكلها بولدها،

أحسستُ بشعور التكبر والفرح والانتصار بعد أن خرجت منافستها من المنزل ولكنني لن أجعل فرحتها تدوم أكثر!!

يجب أن يختفي ولدها من هذا الوجود، لا بدّ له أن يدفن تحت الأرض كي أطمئنّ على حياتي وأتخلص من هذه الهواجس التي لا تنفكّ تلاحقني!! لم أمرّ في حياتي بفترةٍ مشابهة، لطالما كنتُ أغفو على وسادةٍ مليئةٍ بأجمل الأحلام، تصوّر لي أجمل صورٍ لمستقبلٍ أتمنى أن أصل إليه.. ومنذ بدأ صراعي مع أخي وظهر "ماجد" في حياتي انقلبت كل المقاييس عندي، حتى الأحلام غدت كوابيس لا ترحمني لا في النوم ولا في اليقظة!!

ما يزعجني هو أنّ الكوابيس أمرٌ لا يمكنني السيطرة عليه.. وأنا أكره كلّ شيءٍ لا يقع تحت سيطرتي!!

آهٍ.. لو كان الكابوس بشراً!!

****

(7)

أسبوعٌ جديدٌ مرّ، وحالتي النفسيّة تميل إلى التدهور، والحالة الصحية متوسطة.. والدينيّة عدم!!

عندما يحزن القلب، يشعر بأنّ كلّ الكائنات الحسيّة وغير الحسيّة حزينةٌ من حوله، فبعد أن تكون السماء امتداداً رائعاً للأفق الرحب، تغدو اختناق الغيوم في صراعٍ للبقاء، وبعد أن يكون الغروب لوحة السماء الساحرة، يغدو جرحاً ارتسم حمرةً على وجه المغيب!!

غالباً ما أنسى صلاة الظهرين لأنني في هذا الوقت أكون كثيرة الانشغال إما فكرياً أو عملياً، وعند صلاة الفجر أفضل أن أتأمل الخلق على أن أقوم بحركات ركوعٍ وسجودٍ ألتهي في أغلبها عن الذكر في التفكير بأمور الدنيا والحاجات فيها، وعند العشاء تجتمع العائلة وأختلي مع أخي فأمضي بعض الوقت معه.

كانت "أم حامد" المرأة الوحيدة التي جعلتني أنظر إلى الصلاة كعملٍ مقدس.. "أم حامد" هي المرأة التي رافقت طفولتي وربتني بعد وفاة والدتي، كان لها أهميّةً كبرى في حياتي الدينيّة، أما في الأمور الأخرى فلم تكن تعرف شيئاً، فقد كانت كبيرة في السن وقديمة الطراز في تفكيرها وعاداتها، ولكنها كانت تصلي دائماً وتقرأ القرآن طيلة الوقت!! رحمها الله، كانت الوحيدة التي توفيت بقدرةٍ إلهيّةٍ لا يد لي فيها لا من قريبٍ ولا من بعيد.

القرآن.. كدتُ أنسى وجوده، لطالما اعتبرته أنيسي في صغري فقد كانت تضعه "أم حامد" تحت وسادتي كي يحميني ويحفظني من كوابيس الليل وظلم النهار.. كنتُ أحبّ القرآن كثيراً، فهو الشيء الوحيد الذي يشعرني بالاطمئنان والأمان، وعندما توقفتُ عن قراءته بدأ إيماني يتراجع، وأصبح دخول الشيطان سهلاً إلى عقلي وتفكيري، فنسيتُ الله وعبادته وتبعتُ رغباتي وكبريائي وعشقي للسيطرة والتحكم.

ربي، كيف أرضيك.. ماذا أفعل كي تسامحني؟! ما هو سبيل الوصول إليك للفوز بجنتك؟!

خرجتُ في ذلك النهار مع ماجد، تنزهنا في كلّ مكان، قمنا بالكثير من الحركات العفويّة، نسيتُ أنني راشدة وأني امرأةٌ تجاوزت الثلاثين عاماً من عمرها!! كنتُ أشعر أني مراهقةٌ تحبّ المغامرات والمشاغبة والهرب والبعد عن القيود وتخطي الممنوعات!! وقد سايرني "ماجد" في هذا الأمر، لأوّل مرّةٍ يتحوّل "ماجد" الرجل الصلب والثابت إلى ماجد المراهق والمرح!!

كان نهاراً مميزاً، ارتجيته أن يأخذني إلى السينما، اكتشفتُ في تلك اللحظة قدرتي على "الغنج" والدلال، شاهدنا فيلماً رومانسيّاً وأنا التي كنتُ أهزأ من هذه الأفلام!!

لم يهتم ماجد كثيراً بهذا الفيلم، ولكنه لم يرد أن يشعرني بالخيبة فحاول أن يتفاعل معي ويناقشني حول بعض التفاصيل التي مرت في بعض المشاهد!

أوصلني إلى منزلي وحاولتُ إقناعه بالصعود قليلاً لشرب الشاي ولكنه لم يرحب كثيراً بالفكرة وأخبرني أنه بحاجةٍ للراحة والنوم.

كان الغروب قد ملأ الوجود، صعدتُ متوجهةً إلى غرفتي فسمعتُ أخي يناديني!!

عرجتُ عليه ثم وضعته على الكرسي المتحرك وأردت أن أدخله إلى غرفة الجلوس ولكنني شعرتُ فجأةً برجفةٍ في يديّ، رجفةٍ قويةٍ وغريبة كالتي تحصل معي عندما أفكر في قتل أحدهم، ولكن ما سببها في هذه اللحظة؟!! سمعتُ فجأةً قرعاً للباب، ذهبتُ لأفتحه فرأيتها واقفةً أمامي ترمقني تلك النظرة الإستعلائيّة المتكبرة!!

كانت هي، زوجة "ماجد" السابقة، كيف عرفت مكاني، ما الذي جاء بها إلى هنا، أتراها كانت تراقبني وتراقب تحركاتي مع "ماجد"؟! ماذا تريد مني الآن؟!!

دعوتها للدخول، راحت تمشي بطريقةٍ متعجرفة وتحرك بيدها باستخفافٍ ولا مبالاةٍ، لم أكترث كثيراً لهذا المشهد بل بالعكس أحسستُ بالعجب لأنني أعرف سبب هذه الحركات وأعرف أن خلف هذا التكبر غيرة عميقة، هي تدرك جيداً أنني أجمل منها بكثير وتعرف أيضاً أن "ماجداً" يحبني وهذا ما يغيظها!!

لم أعد أغار منها كما حصل معي في أول مرة، ولكن لا زال وجودها غير مرغوبٍ في حياتي ولا في حياة "ماجد"!

قالت: "عرفت بحقيقة علاقتك بماجد، ولم آتِ لأتحدث عن هذا الأمر لأنه لا يعنيني."

فابتسمتُ لها بهزء موافقةً على الفكرة الأخيرة التي قالتها..

أكملت: "ما يعنيني هو ولدي، فقد اتفقتُ مع ماجد أن نتقاسمه فيما بيننا فيبقى لفترة شهرٍ معي ثم يرافق والده في الشهر الآخر وهكذا دواليك."

رحتُ أحرك برأسي أنتظرها أن تدخل إلى صلب الموضوع، فكل ما قالته كنتُ على علمٍ به.. سكتت قليلاً ثم راحت تنظر إليّ بطريقة غريبة، لم أكترث كثيراً لنظراتها ولا لحركاتها، بقيتُ صامتةً أنتظرها حتى تُكمل!

قالت: "لا أريد أن تتغيّر تربية ولدي في الفترة التي سيقضيها مع والده خصوصاً مع دخول شخصٍ جديدٍ على محيطه!!"

استفزني كلامها كثيراً ولكنني استطعتُ السيطرة على نفسي وعلى كلماتي وتصرفاتي، أكملت حديثها وكنتُ مشغولةً عن الاستماع إليها بالتفكير في كيفيّة التخلص منها..

نهضتُ فجأةً بحركةٍ عفويّةٍ بعد أن تذكرتُ واجبات الضيافة، فاستأذنتها ودخلتُ المطبخ أحضر القهوة على طريقتي الخاصة وبحسب المعايير السحرية التي أعتمدها في هكذا حالات ثمّ عدتُ إليها.

بدت شديدة الثقة والتماسك.. هذه هي اللحظاتُ الأجمل عندي، اللحظاتُ الأخيرة للمرء، حاولتُ قدر الإمكان أن أداري رجفة يديّ ولكنني لم أستطع ذلك!!

أحستْ أن هناك أمراً غريباً ولكنني أخبرتها أنني أصاب بالرجفة عند التعب وكثرة الحركة، أكملت تحدثني وتشرب قهوتها بهدوءٍ وطمأنينة، أحببتُ كثيراً أن أهزأ بها وأخبرها عن الذي خفيَ عنها ولكنني آثرتُ الصمت كي لا أفضح سري.. أنهت قهوتها ووقفت متأهبةً للذهاب بعد أن شعرت بالدوار والتعب، ثمّ انصرفت من المنزل فأغلقتُ الباب وراءها وبدأتُ أضحك بصوتٍ عالٍ ولكن ملامحي سرعان ما تغيّرت عند رؤيتي أخي جالساً على كرسيّه المتحرك يرمقني بتلك النظرة الغريبة والمخيفة وكأنه يعرف أني السبب في شلله أو لعله رآني عندما حضرتُ لتلك المرأة فنجان القهوة!!

ارتبتُ من طريقة نظره إلي، ولكنني مع ذلك ابتسمتُ له واقتربتُ منه أستفسر منه عن سبب هذا التصرف ولم ألقِ جواباً.. أيُعقل أنه عرف بحقيقتي ويخاف مني الآن؟!

أعدته إلى غرفته ودخلتُ إلى غرفتي متعبة، أردتُ أن أريح جسدي وأهدئ من روعي وأخفف قليلاً من رجفة يدّي.. الآن لم يبقَ أمام سوى أخي!! الآن أستطيع أن أنام بعد أن أصبح الثقل عليّ أخفّ بكثيرٍ من ذي قبل.

الآن أستطيع أن أحلم بماجد وبيوم الغد من دون امرأةٍ تزعجني أو تعرقل مسار حياتي مع من اخترتُ أن أبقى!!

ظننتني سأكون سعيدةً أكثر بعد أن أتخلص منها ولكنني اختنقت.. أحسستُ بضيقٍ شديدٍ في نفسي وتعبٍ في جسدي وإحباطٍ غريبٍ مع أنني على يقينٍ أنها لا تستحق الحياة.. كان لا بدّ لها أن تموت!!

ما هو يا ترى السبب في هذا الإحساس النادر عندي..؟!! أنا لستُ نادمةً على فعلتي ولا أشعر بأيّ ذنبٍ.. ولكنّ الكآبة تتملكني!!هل السبب هو أخي؟! نعم، فهو الوحيد الذي عجزتُ عن التخلص منه، الوحيد الذي أتعبني بعد أن رفض الموت، والمشكلة أنّ بين يديه إدانتي!! ولكني الآن تفرغتُ له، الآن أستطيع أن أواجهه وأتخلص منه من دون أن يعرقل عملي أمرٌ آخر، أنا مستعدةٌ هذه المرة أن أُبعدَ كل من سيقطع طريقي في هذه العمليّة!!

غفوتُ في تلك الليلة بعد طول أرق ولكني استيقظتُ عند الفجر وصليتُ صلاة الصبح ودعوتُ الله أن يهديني الصراط المستقيم.. ورحتُ أفكر في الحجاب، لطالما اعتقدتُ أنّ خطوةً كهذه يجب أن تأتي بعد قناعةٍ وإيمانٍ كبيرين في القلب والعقل، فيجب أن أكون صادقةً في نيّتي وأطهر قلبي من الداخل قبل أن ألتزم خارجياً.. ولكن لماجد رأيٌ مغاير، رغم أنه لم ينفِ صحة تفكيري إلا أنه اعتبر أنّ من ضمن الخطوات الأولى التي توصل إلى طهر القلب هو الإلتزام الخارجيّ، فقد يكون طريق بدايةٍ للمرء كي يكمل في المسار الأمثل.

ربما هذا صحيح، ولكنني إن كنتُ أنوي القيام بهذه الخطوة، فذلك سيكون بعد أن أتخلص من أخي وعبئه.. عندها أتوب إلى الله توبةً نصوحاً وأكون له خير مطيعةٍ ومؤمنة.

هذا هو الحلّ الأنسبُ لي، وأعلم أنّ ربي غفورٌ رحيم وهو أعلم بما في نفسي وبالصراع الذي أعيشه مع ذاتي ويدري كم أنا بحاجةٍ إلى الهداية وأن لا سبيل لي للنجاة إلا بالتوبة!!

خمسٌ وثلاثون عاماً وأنا على هذه الحالة، والآن لا أطلب إلا شهراً آخر أنهي خلاله عملي ثمّ أتوب إلى الله ولا أعصيه في أمره أبداً!!

مرّ أسبوعٌ أليم، لم يغادر خلاله "ماجد" منزله بعد وفاة زوجته السابقة- بقيَ بقرب ولده يواسيه ويخفف عنه ويحاول أن يلهيه عن هذه المأساة!!

أنا خسرتُ والدتي في صغري، هو على الأقل تعرف إلى والدته أما أنا فلا أتذكر شكلها، جلّ ما أتذكره هو أنني كنتُ في كلّ عامٍ في عيد الأم أدخل غرفتها وأظلّ أبكي حتى تتورم عيناي!!

أظنّ أنّ وفاة والدته نعمةٌ له بدل أن يعيش مشرداً بين أبيه وأمه، سيكون الآن بحالٍ أفضل بعيداً عنها وسأضمن له حياةً جميلةً خاصةً وأني لا أنوي أن أنجب أولاداً، على كلّ حالٍ أظنّ أنّ القطار قد فاتني على هذا الأمر أيضاً!!

ذهبتُ إلى "ماجد" وحاولتُ البقاء معه، ولكنه كان متعباً ولم يستطع الجلوس معي، كانت "سمر" تستقبلني كلما ذهبتُ إليه فأبقى معها حتى يأتي "ماجد" ليسلم عليّ ثم يعود إلى غرفته أو يخرج مع ولده ليرفه عنه.

أحسستُ أنّ "ماجداً" أصبح بعيداً عني في هذه الفترة، أحسستُ وكأني بدأتُ أخسره شيئاً فشيئاً.. أهذا كله بسبب تلك المرأة، أتراه كان يحبها فعلاً؟! لو كان يحبها فلمَ تركها إذاً؟! أم أنه حزينٌ على ولده الذي يتألم لخسارته والدته؟!! نعم، هذا هو السبب، لقد حزن ماجد على زوجته السابقة فقط من أجل ولده!! أنا أعرف جيّداً معنى اليتم فقد أمضيتُ عمري يتيمة الأب والأم، فوالدتي

أبعدها الموت عني، ووالدي لم يعرف يوماً دوره وواجبه تجاهي فبقيَ في نظري ميّتاً هو الآخر!!

أحببتُ أن أساعد "ماجد" كثيراً في هذه المحنة وأردتُ أن أبقى قربه وقرب ولده ولكنني أعرف أنّ "ماجد" لا يتقبل فكرةً كهذه فهو شديد الكبرياء والعزة، ويكره أن يُبديَ حاجته لأيّ مخلوقٍ مهما كان عزيزاً عليه!!

تغيّر كثيراً في الآونة الأخيرة، ما عدتُ أراه كالسابق ولا عاد يهاتفني أو يكلمني في الصباح ولا عند النوم ليتمنى لي ليلةً سعيدة، وهذا كله بسبب تلك المرأة التي ما رحمني طيفها حتى بعد وفاتها.. لو كنتُ أعرف أنّ موتها سيتعبني أكثر من بقائها على قيد الحياة لتركتها حيّة!!

لا.. لستُ نادمة، إنها مسألة وقتٍ فقط وكلّ شيءٍ سيعود إلى سابق عهده إن شاء الله، أنا أعرف أنّ الله لن يحرمني من "ماجد" لأنّه الرجل الوحيد القادر على أن يقربني منه تعالى!!

غدوتُ أكثر نحولاً في هذه الفترة، وأصبح وجهي كثير الشحوب لقلة الأكل وكثرة الإرهاق والملل والحزن.. رحتُ أقرأ القرآن لعلي أرتاح قليلاً، فهذا هو العمل الوحيد الذي يُشعرني بالطمأنينة والأمان، ثمّ صليتُ لله أرتجيه مساعدتي في هذه المحنة.

بدأت الأحداث تخيفني جداً لأني فقدتُ السيطرة عليها، لم أعلم أن ردة فعل "ماجد" ستكون حادةً إلى هذه الدرجة، لم أتصور أن يحزن وينزوي ويطول حزنه أكثر من أسبوعين!!

يا ربي، هل عليّ أن أمهله المزيد من الوقت أم يجب أن أذهب إليه لأوقظه من هذا السبات الذي طال كثيراً..؟!! أنا لا أريد أن أخسره بسبب تلك المرأة، ماذا أفعل يا ربي، كيف لي أن أعيده إلى سابق عهده، كيف أجعل الحيويّة تستيقظ فيه من جديد؟!!

ليس أمامي إلا أن أتقرب من ابنه وأساعده على أن يتخطى الأزمة التي يمرّ بها وهكذا أكسبُ مودة "ماجدٍ" من جديد فتعود إليه البسمة والحماسة لنكمل مع بعضٍ ما بدأناه سابقاً!!

لا أدري لمَ تعسّرت أموري فجأة، أتراه بلاءٌ من ربّ العالمين، ولكنّ الله يعلم نيّتي ويعرف أني لا أقوم بعملي لرغبةٍ مني في معصيته أو معاندته ولكن من أجل تحقيق أحلامي وأهدافي!

أليس علينا أن نعمل لدنيانا وكأننا نعيش أبداً؟!! هذا ما كنتُ أقوم به، كنتُ أصنع لنفسي مستقبلاً أنا أختاره وأختار الأشخاص الذين سيشاركونني فيه وهذا لا يُخالفُ إرادتك يا ربي!!

ألم يرغب آدم في أكل تلك التفاحة ليحقق هدفه في الخلود، لم يفكر أبداً في أنه يعصي الله في فعله هذا ولكنّ رغبته كانت أقوى من قدرته على التفكير في أبعاد أفعاله رغم أنه كان نبيّ الله الأوّل!! فكيف الحال إن كان المذنب إنساناً عاديّاً لا يعرفُ عن النبوّة أو عن العصمة شيئاً..؟! لو لم تكن حواء موجودةً في ذلك الوقت، هل كنا لنصبح الآن خالدين في الجنة؟!! أم أنها حجة الرجل الأبديّة في التهرب من ذنبه ومسؤوليّته وتقصيره فيرمي أعباءه على الضلع الأعوج في هذا الوجود معتبراً أنّ الضلع "الجالس" لا يُخطئ أبداً وأنّ من ولد أعوج لا يمكن أن يصطلح اعوجاجه أبداً؟!!

****

يقولون إنه لا يمكننا أن نمنع طيور الغمّ من أن تحلق فوق رؤوسنا، ولكن يمكننا أن نمنعها من أن تعشعش هناك!!

إنه يوم السبت، لم أحبّ أبداً هذا اليوم ولم يكن يعني لي شيئاً، كنتُ أعتبره تافهاً في بعض الأحيان ككثيرٍ من الأمور الغريبة والغامضة في هذه الدنيا العجيبة!!

أصبحتُ مريضةً في الآونة الأخيرة، لا أدري إن كان السبب "ماجد" لأنني ما عدتُ أراه ولا عاد يكلمني أو ربما بسبب قلة الأكل والغذاء.

كانت زوجة أبي تحضر نفسها كعادتها للذهاب إلى قبر والدي فقررتُ هذه المرة أن أذهب معها!! لم يكن ذلك محبةً بوالدي أو حنيناً لذكراه ولكن رغبةً مني لزيارة أهل القبور فأنا لم أذهب يوماً إلى مقبرةٍ ولم أزر قبراً في حياتي وكانت والدتي الوحيدة التي كنتُ أقرأ لها الفاتحة من حينٍ لآخر، وذلك لأنهم أخبروني في صغري أن مثل هذه الأعمال تريح الميت وتدخل السكينة عليه في قبره!!

للقبور هيبةٌ غريبة، لعله سكون الموتى أو جمود الحجر عندهم، أو مجرد كونهم أمواتاً.. وحدها عبارة الموت كفيلة في صنع الهيبة في ذلك المكان!!

أنا أحبّ الناس جميعاً عندما يموتون.. تماماً كالطفل الذي عندما ينام نحبه كثيراً إذ يكون ملاكاً رائعاً، وعندما يستيقظ ويبكي نتمنى لو أنه ينام.

الموت كالنوم المؤقت إلا أننا نستطيع أن نستيقظ من النوم، أما الموت فوحده الله يعلم متى نستيقظ منه!!

وصلتُ عند رمس أبي، جلستُ قربه أتأمل هيبة هذا المشهد وزوجته تقرأ له القرآن وتسقط بضع دمعاتٍ سريعة التبخر والاختفاء.. أتراها أحبت والدي حقاً أم أنها كانت امرأةً مستسلمة لقدرها فتعوّدت على زوجها وهي الآن تقوم بما يفترض لأي امرأةٍ القيام به بعد وفاة زوجها!!

لم أستطع البكاء ولكني أحسستُ بارتعاشٍ في بدني وبخوفٍ كبير.. تخيلتُ أنني الآن في مكان والدي ولا أحد حولي ليبكي موتي وفراقي، غارقةً تحت التراب وأعفّن هناك وأعذّب نتيجة أفعالي وأطلبُ منقذاً وليس عندي عملٌ صالحٌ ينجيني مما أنا عليه!!

لا أريد أن أموت ولا أحبّ الموت، كما أحسد الشهداء لأنهم عند موتهم يبقون أحياء يرزقون، كيف لي أن أنال الشهادة وأنا لا أستطيع أن أصلي خمس مرات في اليوم!!

لم أستطع البقاء هناك طويلاً، فهذه القبور غريبةٌ عني حتى وإن كان من بينها قبر والدي.. تركتُ زوجة أبي هناك وذهبت، رحتُ أتنزه وحدي في الطريق أحاول أن أغير الأجواء قليلاً عسى أن يرتاح فكري ويهنأ بالي، ولكنني لم أستطع أن أرتاح، فماجد لم يكن حدثاً صغيراً تافهاً يمرّ في حياتي بل كان هدفاً وأملاً كبيراً أنتظر اليوم الذي أحققه فيه!!

تعبتُ من كثرة السير والتفكير، المشكلة هي أنني لا أعرف ماذا يجري من حولي، لا أدري إن خسرتُ "ماجد" بشكلٍ نهائي أم أنها فترة حزنٍ يمر بها وسرعان ما ستنقضي..؟!!

عدتُ إلى منزلي وتوجهتُ كعادتي مباشرةً إلى غرفتي إلا أنني سمعتُ صوتاً يرتفع من غرفة أخي.. استغربت، ولا أخفي إحساسي بالخوف بعد أن سمعتُ تلك النبرة الرجوليّة القويّة والمنفعلة الشبيهة بنبرة ماجد!!

ذهبتُ إلى غرفة أخي ورأيته هناك!!!

كان هو، "ماجد".. يجلس قرب أخي ويتحدث معه بانفعالٍ وتوتر، لا أعرف كيف أصف شعوري في تلك اللحظة، كان شعوراً غريباً يتأرجحُ بين الفرحة في رؤية "ماجد" ماثلاً أمامي وفي منزلي، وبين الخوف من نظراته الحادة التي يوجهها نحوي ومن صوته المنفعل والمضطرب!!

بقيتُ متسمرةً في مكاني، وقف "ماجد" عند رؤيتي متأهباً ولم يوجه أية كلمةٍ إليّ حتى أنه لم يسلم عليّ، فنظرتُ إلى أخي الذي بادلني النظرة نفسها وكأنه عرفني واستعاد ذاكرته ويتذكر الآن حقيقتي!! أتراه استعاد ذاكرته فعلاً؟!! أتراه فضح أمري وأخبر ماجد بكلّ ما يعرفه عني؟! لم أستطع أن أتكلم أو أن أبادر بالحديث، بقيتُ صامتةً أنتظر أن يبادر أحدهما بالكلام.. كنتُ أرتجف

خوفاً في تلك اللحظات وكانت يداي ترتجفان أيضاً ولكن بطريقةٍ جديدة هذه المرة!!

نظر إليّ أخي وقال: "لقد ظهرت حقيقتك أيتها المجرمة!!"

نعم.. لقد استعاد ذاكرته وانتهى أمري!!

استمر أخي بالكلام ولكنني لم أكن أنظر إليه بل إلى "ماجد"، كنتُ أدقق في معلامح وجهه المصدومة والثائرة، رأيتُ شفتيه محمرتين وكفه يختنق من شدة قوّة قبضته، أحسستُ أنّ شرايين وجهه ستنفجر!! لأوّل مرّةٍ أراه على هذه الحالة، لأوّل مرّةٍ يتحوّل الرجل الهادئ والمتعقل إلى رجلٍ ثائرٍ وغاضبٍ ومنفعل!!

كان أخي يتحدث عني وعن أفعالي السيئة ومخططاتي التي نفذتها على حساب الآخرين، كان يتكلم عني بكثيرٍ من الحقد والكراهية والسوء، ولم أستطع أن أرد عليه أو أن أدافع عن نفسي.. بقيتُ أنظر إلى "ماجد"، لاحظتُ عليه خيبة أملٍ كبيرة، نعم لقد خاب أمله بي.. كنتُ دوماً أحبّ أن أخيّب أمل الناس من حولي إلا "ماجداً"، فهو الوحيد الذي كنتُ أقوم بكلّ شيءٍ على أحسن ما يرام أمامه حتى ينظر إليّ بطريقةٍ مميّزة يملأها الفخر والحب، وإذا بي أراه الآن ينظر إليّ وكلّ معاني الكره والحقد والخيبة تظهر في عينيه!!

لحظاتٌ أليمة ومريرةٌ مررتُ بها، لا أدري كيف أعانني الله على أن أبقى واقفةً على قدميّ أمام هذا الموقف الصعب.. كم أنّ أخي قاسي القلب ومؤذٍ، لم يتوقف عن شتمي والتحدث عني بالسوء مخبراً "ماجداً" عن أفعالي وأني السبب في شلله وموت والدي وأنني قتلتُ زوجته وأيتمتُ ابنه وسببتُ الألم والعذاب للكثير من الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي!!

تألمتُ كثيراً، أردتُ أن أجلس لكنني لم أستطع ذلك!!

عندما توقف أخي عن الكلام اقتربتُ من "ماجد" بشكلٍ عفويٍّ ورحتُ أكلمه وأبرر له أفعالي وأعبر له عن حبي الكبير وأخبره أنّ كلّ ما فعلته كان من

أجل أن أحافظ عليه.. لا أدري ما الذي حصل معي ولكنني وجدتُ دموعي تنهمر فجأةً بتدفقٍ وقوّة، كنتُ أتألم كثيراً، فنظرات "ماجد" لي كانت قاسية لا تحتمل!!

أتذكر آخر مرّةٍ أمسك فيها يدي وهمس في أذني يقول: "أسأل الله أن يوفقني لإسعادك!!".. شعرتُ لحظتها بالكثير من الأمان والاطمئنان، ولكنني الآن خسرته، وخسرتُ معه كلّ أحلامي وآمالي، ماذا ستقول "سمر" يا ترى عندما ستعرف حقيقتي؟!! وما همي الآن بسمر أنا لا أريد أن أخسر "ماجد"، يا ربي ألهمني ماذا أفعل الآن؟! ماذا أقول له حتى يسامحني؟! ساعدني يا ربي أرجوك!!

كنتُ أبكي وأخبره أنني كنتُ أنوي أن أتوقف عن هذه الأفعال وأني قد وعدتُ الله أنني بعد الزواج به سأكون خير مؤمنةٍ وسأستغفر لله ما تبقى من عمري!! كنتُ أتأمل أن يُخفف حكمه عليّ بعد إقراري بذنبي ولكن هذا لم يحصل.. لو أنني لم أقتل زوجته السابقة لكانت الأمور أخفّ وطأةً عليه، ولكن ولده مرض بعد وفاة والدته وأنا أعرف أنّه يعشق ابنه ومستعدٌ للقيام بأيّ شيءٍ كي يرضيه ويخفف عنه.. أنا متأكدةٌ أنه لن يسامحني!!

قال أخي: "امسحي دموعك.. لن تجديَ نفعاً!!"

رحتُ أنظر إلى "ماجد" عله يشفق على حالي ويرأف بي ولكنه كان ينظر إليّ باحتقار.. لماذا لا يتكلم، لماذا لا يقول شيئاً؟!! صمته يقتلني، أنا لا أستطيع أن أتحمل هذا الوضع طويلاً!!

اقتربتُ منه أكثر وأمسكتُ بيده ولكنه أبعدها عنه بانزعاجٍ وتوجه نحو الباب يريد الانصراف.. ركضتُ خلفه أستوقفه!!

أنا.. المرأة التي لا تعرف كيف ترتجي أحداً في حياتها، رحتُ أرتجيه كي يبقى معي، طلبتُ منه ألا يغادر، وأن يبقى قربي ويسامحني!! لم أكن أدرك يوماً بشاعة أن يرتجي المرء أحداً إلا في هذه اللحظة، أحسستُ بالذل والحاجة وكنتُ على علمٍ ويقينٍ أنّ من أرتجيه سوف لن يستجيب ندائي ولن يهتم لأمري!!

توقف عند الباب ثمّ نظر إليّ بألمٍ وحزن، واقترب مني قليلاً وأمسك بيدي بقوّةٍ حتى كاد يخنقها..

قال: "أنتِ أسوأ حدثٍ حصل معي في حياتي!!"

أبعد يده عني وتقدم قليلاً ثمّ نظر إليّ من جديد..

قال لي: "من هو مثلك لا يستحق الحياة.. يجب أن يموت!!"

أنا.. يريدني أن أموت؟!! الشخص الوحيد الذي تمنيتُ له الحياة، الرجل الوحيد الذي كنتُ مستعدةً للقيام بأيّ شيءٍ من أجله، يتمنى الآن ليَ الموت!!

قلتُ بألم: "لماذا؟!!"

قال: "أنظري إلى نفسك جيّداً، أنظري إلى داخلك وقلبك، كلّ شيءٍ فيك كذبٌ وتصنعٌ وخداع!! أنتِ أكبر كذبةٍ وخدعةٍ مرت في حياتي!!"

كلامه كان قاسياً جداً، ظننتني أرى كابوساً مزعجاً ومخيفاً، لم أتصوّر أنّ ما يجري أمامي الآن هو حقيقيٌّ وواقعي.. كنتُ أريده أن يضربني أو يشدني علّني أصحو من هذا الحلم المخيف!!

لم يكن حلماً، للأسف كان كلّ شيءٍ حقيقيّاً وقاسياً ومؤلماً، لم أتصوّر يوماً أن تصل الأمور بيني وبين ماجد إلى هذا الحد.. حدّ الكراهية والاحتقار والبغضاء!!! لم أتصوّر أبداً أنّ أفعالي شنيعةٌ إلى هذه الدرجة إلا حين رأيتُ بعينيّ ردة فعل "ماجد" على ما قمتُ به.

كم أنّ الحقيقة مرّة عندما نسمعها ونراها في عيون الآخرين!! والآن ماذا أقول له، بماذا أجيبه، وما هي حجتي وكيف سأتجرأ على مواجهته ورفض كلماته؟!!

قال: "أنتِ امرأةٌ معقدة ومجنونة ومريضة!!!"

أنا؟!! هل هذه الكلمات موجهةٌ إليّ؟! هل هو "ماجد" من يتلفظ بها؟!! هل هذا هو الشخصُ الذي أحب؟!!

قال تلك الكلمات ثمّ توجه نحو الباب من جديد منصرفاً ولكنه رأى سكيناً على الطاولة.. أمسك بالسكين ووجهه نحوي.. هل يريد قتلي والتخلص مني؟!! على سيجرؤ على قتل من يحب؟!!

أنا التي كنتُ مستعدةً لفعل أيّ شيءٍ حتى يبقى سعيداً وعلى قيد الحياة لنعيش معاً ونبني عائلةً دافئةً وسعيدة.

"أريد حياته ويريد قتلي فأتركُ ما أريد لما يريدُ"

استسلمتُ لرغبته من دون أن أعارض فعله أو أقاومه، أحكم قبضته للسكين ثمّ راح يطعنني!!

لأوّل مرةٍ أعرف كيف يخترق سكينٌ جلد البشر.. عمليّةٌ سريعةٌ ومخيفة!! راح يطعنني مرّةً بعد الأخرى وفي قلبي مباشرةً، وعند الطعنة الثالثة سقطتُ على الأرض!!

لقد قتلني.. الرجل الذي أحب، قتلني!!

راحت دمائي تسيل على الأرض بتدفق، دماءٌ حمراء قانية تسيل من قلبي وجسدي وأنا ممددةٌ كجثةٍ هامدةٍ على الأرض.. أحسستُ أن نبضات قلبي تتقطع شيئاً فشيئاً، نظرتُ إليه آخر نظرةٍ قبل أن أغمض عيني وأرى الموت**!!**

وفجأةً رأيتُ المشهد المهول.. قد حان وقتي الآن لأن أموت**!!**

****

(8)

إنه الموت.. نهايةٌ لا بدّ منها!! هي إرادة الله في السماء التي لا يمكن للعبد أن يتحكم بها!!

لا أدري أين أنا الآن، هل أنا في الجنة.. هل ارتفعتُ إلى الله، إلى أين سيأخذني؟!! أنا لا أرى أحداً حولي ولا أعرف أين أنا، أظنني على مفترق طريقين أنتظر أن يأتيَ أحدٌ ويأخذني إلى حيث يجب أن أكون!!

الألوان غريبةٌ هنا وكذلك الإحساس، لا أشعر بوجودي ولا أشعر بجسدي، ويدي تخترق كلّ شيء.. ولا شيء حولي!! هل أنا في العالم الآخر؟!!

رباه أعنّي.. ساعدني أرجوك، أنا لا أجد ذاتي، ماذا سيحصل لي الآن وما الذي يجري هنا؟!! أشعر بصداعٍ أليمٍ في رأسي وكأنّ الدنيا تدور من حولي!! وأيُّ دنيا هذه.. أنا الآن في السماء والدنيا أصبحت ورائي أو أنها تحتي وقد تخلصتُ من عبئها.. ولكن ما الذي يسبب لي هذا الصداع يا ترى؟!! ألا يجب

أن أتجرد الآن من كلّ شعور، هل غسّلوني وكفّنوني ثمّ دفنوني، أم أنني ما زلتُ جثةً مرميّةً لا أحد يهتم بأمرها؟!!

ماذا تراهم فعلوا بماجد، هل أدخلوه إلى السجن لارتكابه هذه الجريمة، هل هو الآن محبوسٌ بين أربع جدرانٍ والسلاسل في يديه؟!! أنا لا أريدهم أن يعذّبوه، فأنا أستحقّ ما فعله بي هذا جزائي على كلّ سوءٍ قمتُ به في حياتي!!

هل سيغفر لي الله ذنوبي كلها، هل سيسامحني ويدخلني جنته، ماذا سيفعل "ماجد" من بعدي، هل سأراه مجدداً هل سيدخل الجنة، هل سأشاركه الجنة نفسها؟!! أتراه ندم على ما فعله بي أم أنه سعيدٌ؟!!

يا ليتني أعرف ماذا يجري على الأرض، كم تراني سأبقى هنا في هذا المكان؟!! إنه المجهول..!!

نعم، هذه الكلمة هي التي تجعلنا نخاف من الموت.. المجهول، فنحن لا ندري إلى أين سيؤول حالنا وماذا سيجري لنا بعد الموت!!

ولكن مصيري أنا ليس مجهولاً، أنا أعرف أنّ مثلي يجب أن يدخل النار، ولكنني أعرف أيضاً أنّ الله يرأف بعبده خاصةً عندما يسأله وبصدقٍ المغفرة والتوبة النصوح!!

أين هي والدتي يا ترى؟! ألا يجب أن تكون هنا معي، ألا يفترض بي الآن أن أرى كلّ الموتى؟! يجب أن أرى أبي وأمي وخالتي وجارتي "أم يوسف" وابنها و"أحمد" وصديقتي "زينة" التي سرقتُ لها "روميو" أحلامها، وعمي وزوجة "ماجد" وكلّ الأشخاص الذين قتلتهم والذين ماتوا وارتفعوا إلى السماء!!

أين الجميع يا ترى؟!! هل هم في قبورهم الآن، ولمَ لستُ معهم؟!! ربما لأنّ وضعي استثنائي، فهم الضحايا وأنا المجرمة ولا يستوي هذا وذاك!!

بقيتُ أتأمل الفراغ من حولي، لم يكن هناك شيءٌ أستطيع رؤيته أو التدقيق فيه، ولكنه لم يكن فراغاً مزعجاً، بل نقيّاً جداً!! أحسستُ وكأني في غيبوبةٍ جميلة، في تلك الرحلة الموعودة عند الانتقال من الأرض إلى السماء.. أظنني الآن في الوسط!!

نعم، الآن أعرف أين أنا، ما زلتُ بين الأرض والسماء أنتظر مصيري.. لم أرى أحداً مخيفاً كما كانوا يقولون، ولم يسألني أحدٌ عن أفعالي في الدنيا!! أين منكرٌ ونكير، هل سأراهم عندما يضعونني في القبر، وماذا سأجيبهم، هل سأخبرهم أنني كنتُ أعصي الله رغم علمي أنّه لا إله غيره وأنّ من يعصيه يعذّب في النار؟!!

ماذا سأقول لربّ العالمين عندما سيسألني عن الصلاة وعن الحجاب وعن الأعمال الصالحة؟!!

فتحتُ عيني.. الآن توضحت الألوان، كلّ شيءٍ من حولي أبيض، والآلات تحيط بي من كلّ جهة!!

أحسستُ بضيقٍ في التنفس وكأنّ على صدري غمامةً ثقيلةً تأبى الذهاب!! وجدتُ نفسي في المستشفى.. هل ما زلتُ حيّة؟!!

نعم، لا زلتُ على قيد الحياة وقد أنقذوني من الموت المحتّم!! الآن عرفتُ لماذا لم أرَ ملك الموت، لأنّ قدري لم يحن بعد!! هل يعطيني الله فرصةً أخيرةً كي أكفر فيها عن ذنبي وأستغفر له عن فعلي وأتوب إليه؟!!

رحتُ أنظر إلى من حولي.. وهنا كانت صدمتي قويّة!!

إنه أبي، ها هو هنا الآن أمامي يبتسم لي وقربه تقف خالتي و"أم يوسف" تبتسم لها فرحةً بي، ومن ثمّ رأيتُ "سمر" وزوجها "أحمد" يقف قربها!!

من هم هؤلاء، أين أنا..؟!! إن كنتُ على الأرض فماذا يفعل الموتى مع الأحياء؟!! رباه ماذا يحصل من حولي؟!

فجأةً أقبل "ماجد" وزوجته السابقة تتبعه وأخي يقف بجانبه ويتحرك بشكلٍ طبيعيٍّ من دون عوارض شللٍ في الحركة!!

جاء الطبيب وطلب من الجميع الانصراف من الغرفة.. رحتُ أصرخ بصوتٍ مرتفعٍ أخبر الطبيب أنني يجب أن أكون ميّتة الآن وأنني تلقيت ثلاث طعناتٍ في قلبي!!

ابتسم لي وراح يهدئ من روعي ويقول إنني أفرطتُ في أخذ حبوبٍ مهدئة ومنوّمة أدّت إلى الإغماء والدخول في المرحلة الأولى من الغيبوبة، ولولا أن جاء بي "ماجد" إلى المستشفى سريعاً لكنتُ الآن فعلاً ميّتة!!

إذاً كان "ماجد" من أنقذني.. ألم يكن السبب في موتي؟!!

عن أية حبوبٍ يتكلم.. أليست الحبوب التي كنتُ أضعها لمن أختار له الموت، هل كنتُ أقتلهم أم أنني كنتُ أقتل نفسي؟!!

رحتُ أكلم الطبيب وأخبره بكلّ شيء، ثمّ مددتُ يدي إلى قلبي ولم أجد أثراً لأيّة طعنةٍ أو ضربة!!

أعطاني الطبيب مسكناً كي تهدأ أعصابي وتخمد ثورتي، ثمّ غفوتُ مثقلةً بعد المشهد الغريب والمؤلم الذي رأيته!! ولكنني قبل أن أدخل في سباتيَ العميق سمعتُ صوت "ماجد" يكلم الطبيب ويسأله عن حالي..

قال الطبيب: "إنها تمرّ بأزمةٍ نفسيّة، تتكلم كثيراً عن القتل وطعناتٍ في القلب وأخبرتني أموراً عجيبة، لديها خيالٌ واسعٌ ولكنّ مشكلتها ليست جسديّة بل نفسيّة".

لا أدري ماذا حصل بعد هذه الكلمات، لم أفهم جيّداً ماذا يجري ولكنني أتذكر فقط أنني عندما استيقظتُ من غفوتي رأيتُ وجوهاً غريبةً لأشخاصٍ يجب أن يكونوا الآن في قبورهم!!

هل كانت "أم يوسف" تضحك لي فعلاً كما رأيتها أم أنه كان مجرد حلمٍ غريب؟!! أنا لم أستوعب بعد أنني ما زلتُ على قيد الحياة، فكيف لي أن أستوعب فكرة أنّ من قتلتهم لا زالوا أحياء!!

هل كنتُ أقتلهم فعلاً أم أنني كنتُ أتصوّر ذلك؟!!

ربما أصبحتُ الآن أرى الأمور على حقيقتها، وقد أعطاني الله فرصةً أخرى كي أرى الحقيقة وأسير في الطريق الصحيح، طريق المغفرة والتوبة والرحمة الإلهيّة المنشودة!!

ربما لأنني رأيتُ الموت بعينيّ، جعلني الله أرى الأمور على طبيعتها وحقيقتها كي أبدأ في السير على الصراط المستقيم.

لا أدري حقاً ما الذي كان يجري من حولي، ولكنني أعرف أنّ هذا حقيقيٌّ إلى درجةٍ مخيفة!! لم أعد أريد أن أستيقظ لأرى ما أراه، أريد أن أستمرّ في النوم، أخاف أن أفتح عيني من جديدٍ ليقع بصري على والدي الذي مات نتيجة جلطةٍ في القلب، وخالتي التي قتلتها بيدي هاتين، وعمي و"أم يوسف".. وغيرهم!!

ماذا أقول لهم عندما أراهم من جديد؟!!

لم يكن الطبيب سمحاً ولا سلساً في تعاطيه مع مرضاه، هذا أقله ما شعرتُ به، فلم أرتح لمعاينته ولا لكلامه معي!! كان يخيفني كلما اقترب مني، أشعر أنّ لديه رغبةً في خنقي وقتلي ولستُ أدري سبب هذا الفعل!!

لعلهم هكذا أغلبهم، نعم هذا ما يُقال عنهم، فهم ليسوا مريحين ولا يفكرون بمشاعر المريض وأحاسيسه.. ولكنّ الطبيب ليس مهماً، المهمّ الآن مشكلتي

مع أهلي وعائلتي وصحبتي.. ماذا يجب أن أقول لماجد عندما أفيق، كيف سأواجهه بعد أن عرف كلّ شيءٍ عني؟!!

مرّت ساعاتٌ طويلة قبل أن أفتح عيني لأجد والدي واقفاً على يميني و"ماجد" على يساري.

قال والدي: "حمداً لله على سلامتك بنيّتي".

كان ينظر إليّ بحنان، لطالما كان حنوناً معي، لطالما كان يسأل عني ويطمئنّ عليّ ويهتمّ لأمري.. لماذا كنتُ أكرهه، لماذا أردتُ أن أقتله وأن أتخلص منه في السابق؟!!

لطالما احتواني في طفولتي ورعاني وساعدني على تخطي فقداني لوالدتي، كان لي نعم الأب ونعم الرفيق، فلماذا أردتُ قتله؟!!

أقبلت "أم يوسف" حاملةً باقةً كبيرةً من الزهور، ثمّ اقتربت مني وراحت تقبلني على خدي وجبيني ثمّ أمسكت بيدي وقبّلتها.

هل هذه هي فعلاً "أم يوسف".. المرأة المشعوذة والساحرة؟!! فأنا أرى الآن أمامي امرأةً طاهرةً وطيّبة القلب وسمحة الوجه!!

رباه ماذا يحدث من حولي، هل حادثتي جعلتني أرى الأمور على حقيقتها؟!! جلست "أم يوسف" قربي ثم راحت تحدثني وتخبرني أنها في فترة إقامتي في منزل والدي كانت تذهب يوميّاً إلى شقتي فترتبها وتنظفها حتى إذا قررتُ العودة إليها وجدتها مرتبة ومريحة!!

هل هي تفعل كلّ هذا من أجلي؟!! أنا التي تمنيّتُ لها الموت وظننتني قتلتها في السابق!

نظر إليّ "ماجد" وسألني: "كيف أصبحت الآن؟!"

بادلته النظرات ورحتُ أهزّ برأسي مشيرةً إلى أنني بخير.. لم يسألني هذا السؤال بنبرةٍ قاسية أو حادة، بل على العكس كان شديد اللطف والطيبة معي، هل هذا يعني أنه تخطى الأمور التي حدثت بيننا قبل أن أموت!!

والآن ماذا أقول له، لا يزال رائعاً كما عهدته.. لا يزال رجلاً، في هيبته وحركاته وانفعالاته، في صمته وكلامه وفي بلاغة حروفه، في نظرته وتقطيبة حاجبيه.. في كلّه أحبّه!!

وأحبّ الله أيضاً، أحبّه كثيراً.. ما أرحمك يا ربي وأجلّك، رحمتك وسعت كلّ شيء، وسعت سوء عملي وقصر تفكيري، لقد أمهلتني فرصةً جديدةً لا أستحقها، فرصة التوبة والعودة إلى الصراط المستقيم، وتهذيب ذاتي ونيّتي كي أستحقّ الجنة!!

أنا أريد الفوز بالجنة، ولكن كيف لي أن أبدأ مشوار الهداية والإسلام الحقيقيّ.. من سيهديني هذا السبيل؟!!

****

مضيتُ بفكري أحاكي كتب العقل، لطالما عشقتُ لحظات التأمل التي تعتريني فجأةً من دون إنذار، أنا التي أؤمن بأحاديّة الفكر وسلطته العليا، صيّرته الآن بحراً للوجد أضعه على ذاكرتي الأليمة التي تكدست فيها بقايا أحلامٍ ذبلت مع الأيّام، فنحنُ نمتطي خيول الواقع لنطير بأجنحة الفكر إلى حيث المدى يوسّع أفق الخلود، ولكنّ الذكرى تعود دوماً إلى القلب الصغير فتخدش ضعفه عند كلّ دمعة، عند كلّ ألم.. فيذوي الفكر في انتفاضة الشعور والإحساس، ليكون صمتُ الدموع أجمل رثاءٍ للماضي ويبقى الأنين للقلب حيث تتخبط فيه الأفكار ليسود الأمل على أمد العمر، فأستمرّ في الحياة!!

سأتحجب.. نعم، لقد قررتُ أخيراً أن أبدأ بالجهد على نفسي وألتزم بما أمرني به ربي ولا أعصيه في حكمه وأمره!! أنا مقتنعةٌ بوجوب الحجاب وقد كنتُ أؤجل هذا الأمر مدعيةً عدم الاقتناع لأخفيَ رغبتي في المعصية وإظهار المفاتن عندي حتى أستطيع جذب أكبر عددٍ ممكنٍ من الرجال إليّ.. ومع ذلك تجاوزتُ الخامسة والثلاثين من العمر ولا زلتُ غير متزوّجة!! ولكن مشكلتي ستحلّ من الآن وصاعداً، سأبدأ بالصلاة فور عودتي إلى منزلي!!

لا، يجب أن أبدأ من الآن من هذه اللحظة لأنني إن أجّلتُ ذلك سوف لن أقوم بعملي أبداً، ومثل هذه الأمور لا تحتمل التأجيل، فالموت يأتي على حين غفلة وأنا التي جربتُ هذا الإحساس ويجب ألا أعيد الكرة مرةً أخرى!!

الآن اكتشفتُ أنني كنتُ أعيش على هامش الحياة، بعيداً عن الإنسانيّة ومفهومها وعظمتها، بعيداً عن الإسلام وتعاليمه وأبعاده ورقيّه، بعيداً عن هموم الناس ومشاكلهم والهدف الأسمى لهم في الحياة!!!

ما هو الهدف الأسمى في الحياة؟! هل هو تحرير "فلسطين"، وإنقاذ المسلمين من جور اليهود وظلمهم، أم هو السير على الصراط المستقيم وطاعة الله في أمره وحكمه.. أم هو تحقيق الذات بعيداً عن مفهوم الآخرة؟!!

عندما رأيتُ الموت بعينيّ أدركتُ أنّ مفهوم الحياة لا يمكن فصله عن مصيرنا في الآخرة!!

جلست "أم يوسف" قربي تحدثني عن ولدها "يوسف" وزوجته وابنه، ألم يطلق ولدها أم أنني رغبتُ بحدوث ذلك فتخيّلته؟!!

وابنها "حسن"، سيتخرج من الجامعة هذا العام، ولدٌ مجتهدٌ ومهذب وكثير الاحترام، من قال إنّ ممشاه سيّئ وأخلاقه منحدرة وإنه قتل؟! اسم الله عليه فهو من خيرة الشباب المجتهدين والمحترمين.

لم تعد أعصابي تحتمل كل ما يجري حولي.. لم أعرف بعد أين ذهبت آثار الطعنات في قلبي؟! هل توهمتُ هذا الأمر، هل اعتبرتُ كلماته التي وجهها إليّ كالطعنة في قلبي لشدّة قساوتها عليّ!!

ما زال عليّ أن أبقى في هذا المستشفى لبعض الوقت حتى تستقر حالتي ويتحسن أمري وبعدها أعود إلى دياري وأنام في غرفتي بعيداً عن هذا البياض المريع!!

أقبل والدي إليّ وقبّلني في جبيني ثم جلس قربي وراح يبتسم لي بحنانٍ وحبٍّ ثم تنهد قليلاً..

قال: "لماذا حاولتِ الانتحار بنيّتي؟ هل كان هناك تقصيرٌ من قبلي؟!"

الانتحار.. من حاول الانتحار، أنا؟!! رباه، هل صحيحٌ ما يقوله، هل حاولتُ الانتحار فعلاً، هل كنتُ أنوي عصيانك ومعاندتك حتى في موتي؟!!

والآن كيف أتوب إليك من هذا الذنب العظيم؟! أنا أعرف ماذا تنتظر مني ولن أخيّب أملك بي يا ربي، ولكني لا زلتُ أحتاج عونك وتيسيرك!!

هل كنتُ سأنتحر فعلاً فأدخل بذلك النار ولا يبكي عليّ أحد!!

أتذكر مربيتي "أم حامد" عندما قالت لي يوماً: "أنا أرضى أن أكون تراباً يمشي الناس عليه إن كان ذلك يرضي الله ويدخلني جنته!"

أجبتها أضحك من سخفها: "أنا أرضى أن يكون الناس من حولي تراباً أمشي عليهم إن كان ذلك يرضي أهدافي ورغباتي!!"

أعرف أنني كنتُ كذلك في السابق، ولكنني سأتغيّر في المرحلة المقبلة وسأكون كما يرتضي الله أن أكون عليه.. الحمد لله الذي أجرى عليّ ما أجراه كي أرى الأمور بنور البصيرة الذي كان يحجبه الضلال عني ويحرمني لذّة السعادة الحقيقيّة الخالصة لله!

يجب أن أطلب من "ماجد" أن يساعدني.. إنه الوحيد القادر على إنقاذي مما أنا عليه، فهو الأدرى بحالي وحبّه سينجيني من النار!!

هل يجب أن أتمسّك بحبه.. أم بحبي لله؟!!

كنتُ أحاول أن أغفو عندما سمعتُ صوت "سمر" وهي تدخل إلى الغرفة وتسأل "ماجداً" عن حالي.. لم يكن "أحمد" برفقتها ولكنني أحسستُ من صوتها أنها سعيدةٌ جداً معه، أنا أعرف "سمر"، فهي صديقة طفولتي، أعرفها جيّداً عندما تحبّ بصدق وهي الآن سعيدةٌ جداً مع "أحمد" ويبدو أنها حامل!!

نعم، هي حامل في شهرها الرابع وقد تمّ زواجها في وقته ولم أعرقله أنا!!

نظرت "سمر" إلى "ماجد" وسألته: "هل ستعود إليها؟!"

قال: "إن شفيت من مرضها النفسيّ هذا.. فسأعود إليها!!"

ابتسمتُ.. لو لم تكن أعصابي مرتخية لقفزتُ عن السرير وصرختُ فرحاً بهذا الخبر!! الحمد لله الذي يسّر أمري فأحياني من جديدٍ وأعطاني بركة التوبة إليه، والآن يرزقني السعادة الأكبر، فماجد هو سعادتي المطلقة!

لا.. رضا الله هو السعادة المطلقة، وحبّ "ماجد" يرضي الله.. نعم، هذا التعبير أنسب، هكذا يجب أن أعوّد نفسي على التفكير، هكذا أهذّبها وأروّضها فأصيّرها مطواعةً ومسلمةً لله ولقضائه!!

لم يأتِ أخي اليوم لزيارتي ولا حتى زوجات والدي.. ربما لا يهتمون لأمري أم أنهم لم يسامحوني بعد، نعم فإنّ جريمتي لا تغتفر..

أصعب الأمراض هو مرض القلب، لأنّ الشفاء من هذا الداء منوطٌ بالمريض ذاته، لا بطبيبٍ ولا بدواءٍ ولا بغيره من الأمور..

أتذكر ذاك العالم الروحيّ الذي لجأتُ إليه مرةً أشكو إليه مرضي أو ربما أمراضي، كنتُ أريد فعلاً أن أتغير، راح يدلني إلى الطرق المشرعة أمامي بسلاسته المعتادة، ولكنه لم يمسك بيدي.. فأضعتُ الطريق سريعاً!!

كنتُ فقط أحتاج إلى من يمسك بيدي، فأنا كالطفل أضيع إن مشيتُ وحدي في أيّ طريقٍ كان إلا الشرّ!! فهو الطريق الذي يزيّنه الشيطان، فيضع الرغبة عند كلّ زاويةٍ من زواياه كي نستمرّ في السير فيه!!

مشكلتي أنني أردتُ أن أتملك "ماجداً" وأن يكون لي من دون أن ألتفت إلى مشاعره وراحته عند هذا الفعل!! ولكنني استدركتُ ذلك بعد أن عرفتُ الحقيقة، وأعرف ماذا يتوجب عليّ أن أفعل!!

سأتخلص من حبّ التملك والسيطرة داخلي، سأقاوم رغبات الشيطان الذي يحاول إيقاعي وإغراقي في دهاليزه ومستنقعاته!! سأعطي الحريّة الكاملة لماجد في ممارسة حياته الطبيعيّة مع من يحب ومن يريد.. ولكنني لا أريد أن أرى نساءً في حياته غيري، ولن أتقبل أن يغادر المنزل كثيراً ويعود متأخراً، ولن أسمح له أن يذهب من دون مرافقتي ومراقبتي..

يا إلهي، لا زلتُ أريد أن أتملكه.. حتى عندما أفكر في هذا الأمر وحدي أعرف أنني لن أستطيع التخلص من هذه المشكلة!! ولكنني سأتخلص من تلك

الحبوب التي كنتُ أتناولها عند كلّ أزمة، والتي كانت خلاصي كي أستطيع النوم والنسيان!!

جاء عمي يزورني.. عمي الرجل المؤمن والملتزم، كيف يمكنه أن يحافظ على هدوئه طيلة الوقت، هل هذا هو سرّ الإيمان عنده؟! لم أكن في السابق أصدق بوجود رجلٍ يملك صفاتٍ مماثلة، كنتُ أظنّ أنّ أموراً كهذه لا تتواجد إلا عند الأنبياء والمعصومين، وإن ظهرت عند البشر فتكون شكلاً أو مظهراً من مظاهر التمثيل والادعاء والكذب وخداع العقول الساذجة والبسيطة!!

كنتُ عمياء.. فما أروع الطهر الذي يتحلى به عمي، ولكم كانت علاقته بوالدي علاقةً مميّزة، لطالما كانت كذلك.. لكنني لم أكن أؤمن بالأخوّة لأنني عشتُ وحيدةً في صغري، ولم أؤمن بالحبّ لأنني حرمتُ من حنان الأم وحبها!! ولعلّ السبب في عدم إيماني بالصدق هو شعور بالنقص داخلي.

سمعتُ كلمة "أحبك" في شبابي من الكثيرين، ولكنها لم تعنِ لي شيئاً يوماً، ربما لكثرة ما سمعتها فقدت رونقها أو لأنني لم أعرف معناها يوماً لأقدر قيمتها.

الحبّ يعني المسالمة، وأنا أعشق الغضب والثورة، لا أحبّ الخمول والركون، أحبّ العلاقة التي فيها معاناةٌ وتعبٌ حتى يصل المرء إلى المحبوب!! وقد خضتُ حروباً كثيرةً مع نفسي حتى استطعتُ جذب "ماجدٍ" إليّ، لهذا السبب تعلقتُ به ولا أريد خسارته!!

خرج عمي من الغرفة فبقيتُ مع "ماجدٍ" وحدنا.. أردتُ أن آخذه في حضني وأبكي على كتفيه، كنتُ أريد أن يرى دموعي ليصدق نيّتي في التوبة ولكنني لم أفعل ذلك لأنني لا أحبّ أن يراني ضعيفةً، وحده ربي الذي خلقني يراني مستكينةً له ومحتاجةً إليه!!

لذا اكتفيتُ معه بلغة العيون.. تكلمت عيناي وأظنهما عرفتا ما تريدان أن تقولا!!

لقد مللتُ من هذه الجدران البيضاء، لم أعد أتحمل رائحة هذه المستشفى، أريد أن أعود إلى منزلي، إلى منزل والدي!! لا أريد تلك الشقة التي كنتُ أسكن فيها وحدي معزولةً عن العالم ولم يكن أحدٌ بقربي إلا "أم يوسف".. بل أريد العودة إلى منزل والدي حيث الدفء والعائلة والحنان، حيث أجد هناك الحضن والأمان!

الحمد لله.. إنه يوم الخلاص، اليوم أعود إلى دياري، اليوم تستقبلني الجدران الملوّنة وأنتهي من البياض الذي يقذف بي نحو الجنون، فهو يُشعرني أنني أعيش في "المستحيل" وأنا التي أميل إلى "الممكن" في كلّ شيء.

وصلت.. فتوجهتُ مباشرةً إلى غرفتي، رحتُ أنظر إليها بعينين مختلفتين، فقد شهدتُ الموت ونجوت منه، مرّت عليّ مشاهد وأحداث كثيرة وأريد الآن أن أرى ذاكرتي بأملٍ جديدٍ ومختلف!!

أخذتُ بوسادتي وحضنتها، لا أدري إن كنتُ أحضن ذاكرتي فيها أم أنني أحببتُ أن أضم شيئاً إلى صدري كي أعبّر عن دفء الإحساس الذي انتابني في تلك اللحظة!!

هل سيأتي "ماجد" لزيارتي في منزلي كما كان يفعل كلّ يومٍ في المستشفى؟!! جاء أخي إلى غرفتي فأخفضتُ رأسي عند رؤيته، اقترب مني وجلس إلى جانبي..

قال: "أعرف أننا نختلف كثيراً في التفكير وأننا لا نتفق في أغلب الأمور، ونحن دائماً نتشاجر ولكنك رغم كلّ شيءٍ تبقين أختي الكبيرة والقديرة، كنتِ على الدوام قدوةً لي في صغري ولطالما أحببتك.. نحمد الله على سلامتك وعلى عودتك إلى بيتك!!"

جوابي.. لا تعليق!!!

كم أنّ هذه الحياة تعلمنا الكثير، هل كنتُ أحتاج إلى الموت كي أصحو من غفلتي هذه ومن هذا السبات العميق؟!! وهل كان لا بدّ لي من هزّةٍ تجعلني أفيق وأرى الوجود من حولي على حقيقته وشفافيته وجماله؟!!

غفوتُ من دون تفكيرٍ في تلك الليلة.. فقد كان نهاري شاقاً بما يكفيني لأنام لساعاتٍ طويلةٍ من دون الحاجة إلى منوّم!!

صحوتُ بعد أن كانت الشمس قد تسللت إلى غرفتي.. لا، لم يكن هذا ما أيقظني، بل لأنني سمعتُ صوت "ماجد" مرتفعاً من غرفة الجلوس.. تأهبت!! نبرته وصلت إلى أعماقي، هممتُ أهيّئ نفسي لاستقباله، ولكنني هذه المرة لم أتزيّن له ولم أضع مساحيق على وجهي، لا لأنّ جمالي يكفي من دون مساحيق، بل لأنّ ذلك سيغضب الله.. وما أحوجني إلى رضاه الآن ودائماً!!!

أردتُ الخروج من غرفتي ولكنني سمعتُ "ماجد" يكلم والدي عني.. فتجمدتُ في مكاني من دون حراك وكأنّ على رأسي الطير!!

قال: "الحمد لله على سلامة ابنتكم وأدامها الله لكم بخيرٍ وعافية".

لم أسمع جواب والدي لأنّه أخفض صوته فجأةً فشققتُ الباب قليلاً حتى أسمعه..

أكمل "ماجد": "المسألة هي أنني أطمع بطلب يد ابنتكم للزواج، وأدري أنّ الوقت الآن غير مناسبٍ، وأنا لستُ على عجلةٍ من أمري ولكنني أحببتُ أن أفاتحكم بالموضوع كي تكون الصورة واضحةً لكم".

لم أسمع ما تبقى من الحديث، كنتُ قد ذبتُ في كلامه إلى حدٍّ احتجتُ فيه للجلوس.. السعادة تغمرني وقلبي يرتجف من شدة الفرح!!

وقفتُ من جديدٍ وحاولتُ أن أسمع تتمة الحوار..

قال: "لن نرتبط حتى تشفى نهائيّاً من مرضها النفسيّ هذا، وأنا سأساعدها إن شاء الله على التخلص منه والتغلب عليه!!"

سيساعدني على التقرب من الله، هكذا أفضل أن أعبر عن حالتي فهي بهذا الشكل أخفّ وطأةً عليّ.. المهمّ الآن أنّه سيساعدني وسيمسك بيدي ليدلني إلى الطريق الصحيح، ولن يتركني أمشي وحدي بل سيرافقني في هذا المسار كي لا أتوه في الطريق!

دخلت "سمر" عليّ تقبلني وتبارك عودتي سليمةً معافاةً إلى منزل والدي.. بدأت تخبرني بما قاله "ماجد" لوالدي، ولكنني أبديتُ لها الفرحة وبعض التفاجؤ كي لا تشعر أنني كنتُ أتجسس وأستمع خلسةً إلى حديثهما.. لم أرد أن تعرف هذا الأمر كي لا تسيء النظر إلى هذا الفعل.

قالت لي: "يجب عليكِ أن تتغيّري كثيراً كي تفوزي بعمي، وسأحرص على مراقبة تحسنك كي أطلعه على كلّ شيء.. أحسني التصرف!!"

نظرتُ إليها باستغرابٍ ولكنني ابتسمتُ لها مع أنني واقعاً أحببتُ أن أخنقها بيديّ هاتين!! من تحسب نفسها لتكلمني بهذه الطريقة وهذا الأسلوب وإن كان ذلك من باب المزح، هل تظنني لعبةً بين يديها أو حقل تجاربٍ تمارس عليه ما تريد فتراقبني في أفعالي وتحركاتي وتمنعني من أن أعيش حريتي وأمارس يوميّاتي براحةٍ وسلام؟!!

لا بدّ لها أن تموت..!!

أنا أعرف أنها شريرة، لم تكن صادقةً يوماً في صداقتها معي بل كانت ترافقني لأنها تعلم أنّ لا أحد يتحمل أخلاقها الصعبة ومزاجها الضيّق والمزعج!! كنتُ الوحيدة التي تسايرها وتتقبل منها هفواتها وأخطاءها!!

لا أدري حتى كيف يتحملها "أحمد" وكيف ستنجب طفلها القادم الآن!! لا بدّ لها أن تجهض.. نعم، فهي لا تستحق أن تكون أماً!! نفسها الشريرة سوف تمنعها من أن تنال ما تتمناه.

ها هي الآن تطلب مني أن اسقيها ماءً بكلّ وقاحةٍ وهي تعلم أني مريضةٌ ومتعبة!!

بدأت يداي ترتجفان بقوّةٍ واضطراب، لا بدّ لي أن أستغلّ هذا الموقف، لا بدّ لي أن أشبع رغبة يدي في القتل!!

وضعتُ من الحبوب ما يكفي لجعلها منسيّةً تحت التراب في كتاب الماضين على هوامش أيّامهم، ورحتُ أنتظر حتى تخفّ رجفتي بعد أن أراها تتهاوى أمامي لتسقط على الأرض وتغيب عن الوعي وعن هذا الوجود!!

يا إلهي..!! ماذا يحصل معي الآن؟! إلى أين ذهب بي التفكير.. ها هي جالسةٌ أمامي تبتسم لي ببراءتها المعهودة!! هل ما زلتُ مريضةً وأنا التي ظننتُ أنني بعد تلك الحادثة قد شفيتُ من هذه العلة وهذا المرض!! الآن اكتشفتُ أنّ عندي أمراضاً كثيرةً تتعدى التي ظننتها في السابق.. لا يجب لأحدٍ من حولي أن يموت.. ولكن...

لا بدّ لي أنا أن أموت!!

ربما لا.. لستُ أنا من يجب عليها أن تموت، إنها نفسي!!

نعم، نفسي الأمّارة بالسوء، نفسي الظالمة الحاقدة السيّئة، لا بدّ لها أن تموت!!

أريد أن تكون نفسي مطمئنة حتى تصعد إلى ربها راضيةً مرضيّة فتدخل في عباد الله وتدخل جنته!!

أريد أن أحصل على الطمأنينة التي تؤنس القلب وتهدي النفس فيسبح المرء في غمراتها ويهيم في عالم الأمن والأمان!!

ولكنها تأبى الموت.. ترفض إلا أن تَفْجُرَ لترميني معها في جحيم النار الحارقة الملتهبة التي لا ترحم ولا تشبع!!

كيف لي أن أتخلص منها.. كيف لي أن أبعد كيد الشيطان عنها.. أبالقرآن أشفيكِ يا نفسي أم بالصلاة؟!!

إذاً سأصلي وأصوم وأقرأ القرآن وأتعبد إلى الله حتى يرضى عني فيساعدني في هذه الدنيا ويرحمني في الآخرة!!

ولكن كيف لي أن أقتلها!!

إن تركتها حيّة فستقتلني.. وأنا لستُ معتادةً على الهزيمة!! لا بدّ لها أن تموت على يديّ، يجب أن أخنقها حتى تستسلم لي وترضخ لأمري وتطيع الله كما أمرنا كي ننجوَ في الدنيا ونفوز في الآخرة!!

ساعدني يا ربي.. ساعدني كي أتخلص منها فهي أقوى مني!!

ليتني أستطيع أن أقتلها، ليتها تموت..

ليتها تموت!!!

تمت بحمد الله

2007/11/20

سارة بشار الزين

الفهرس

الإهداء 3
الجزء الأول 4
الجزء الثاني 21
الجزء الثالث 44
الجزء الرابع 62
الجزء الخامس 81
الجزء السادس 99
الجزء السابع 120
الجزء الثامن 134
الفهرس 150

أنا من يمسح عني دمعاتي الحزينة..

أنا من يُطفئُ نار الجوى في أضلعي..

أنا من يُهدئ روعي من أشباح القدر الموحشة..

أنا من يسكن أعماقي في اضطراب صخب الحياة الموجعة..

أنا من يوصل فؤادي إلى جنة السعادة..

فأين حبيبي..؟!!

أيبخل عليّ بشذى طيفه.. ألا يحمل آهاتي الدفينة من أكبادي بمسحة كفّيه..

فتباً لقلبي الذي يتلمّس من أحدٍ عطفاً..

قدري أن أبقى وحيداً في صومعتي..

فيا ربّي مدّ لي كفن الرحيل...

كلمات عزيز...